

عارياً أمام الآلهة



شيف ك. كومار
ترجمة: طلعت الشايب

عيون الأدب الأجنبي

دار شرقيات للنشر والتوزيع

عارياً أمام الآلهة

Nude Before God

Shiv K. Kumar

Penguin Books, 1987

عارياً أمام الآلهة

تأليف : شيف ك. كومار

ترجمة: طلعت الشايب

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات. ١٩٩٨

الطبعة الأولى لهذه الترجمة ١٩٩٨



دار شرقيات للنشر والتوزيع

هـ ش محمد صديقي، هدى شمراوي،

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق - القاهرة

ت: ٣٩٠٢٩١٣

م. ت: ٢٦٩١٩٨

غلاف: ذات حسين

لوحة الغلاف: لوحة من

القرن التاسع عشر

للإله الهندي «فشنو»

(الحافظ) كرمز للكون.



رقم الإيداع ٢٨ / ١٧ / ١٩٩٨
الترقيم الدولي 3-097-283-977 ISBN

عاريّاً أمام الآلهة

شیف ك. كومار

ترجمة: طلعت الشايب

الهيئة العامة للكتابة الفنية، كسندرية

رقم التصنيف
نوع
رقم التسجيل

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

26

27

28

29

30

31

32

33

34

35

36

37

38

39

40

41

42

43

44

45

46

47

48

49

50

51

52

53

54

55

56

57

58

59

60

61

62

63

64

65

66

67

68

69

70

71

72

73

74

75

76

77

78

79

80

81

82

83

84

85

86

87

88

89

90

91

92

93

94

95

96

97

98

99

100

101

102

103

104

105

106

107

108

109

110

111

112

113

114

115

116

117

118

119

120

121

122

123

124

125

126

127

128

129

130

131

132

133

134

135

136

137

138

139

140

141

142

143

144

145

146

147

148

149

150

151

152

153

154

155

156

157

158

159

160

161

162

163

164

165

166

167

168

169

170

171

172

173

174

175

176

177

178

179

180

181

182

183

184

185

186

187

188

189

190

191

192

193

194

195

196

197

198

199

200

201

202

203

204

205

206

207

208

209

210

211

212

213

214

215

216

217

218

219

220

221

222

223

224

225

226

227

228

229

230

231

232

233

234

235

236

237

238

239

240

241

242

243

244

245

246

247

248

249

250

251

252

253

254

255

256

257

258

259

260

261

262

263

264

265

266

267

268

269

270

271

272

273

274

275

276

277

278

279

280

281

282

283

284

285

286

287

288

289

290

291

292

293

294

295

296

297

298

299

300

301

302

303

304

305

306

307

308

309

310

311

312

313

314

315

316

317

318

319

320

321

322

323

324

325

326

327

328

329

330

331

332

333

334

335

336

337

338

339

340

341

342

343

344

345

346

347

348

349

350

351

352

353

354

355

356

357

358

359

360

361

362

363

364

365

366

367

368

369

370

371

372

373

374

375

376

377

378

379

380

381

382

383

384

385

386

387

388

389

390

391

392

393

394

395

396

397

398

399

400

401

402

403

404

405

406

407

408

409

410

411

412

413

414

415

416

417

418

419

420

421

422

423

424

425

426

427

428

429

430

431

432

433

434

435

436

437

438

439

440

441

442

443

444

445

446

447

448

449

450

451

452

453

454

455

456

457

458

459

460

461

462

463

464

465

466

467

468

469

470

471

472

473

474

475

476

477

478

479

480

481

482

483

484

485

486

487

488

489

490

491

492

493

494

495

496

497

498

499

500

501

502

503

504

505

506

507

508

509

510

511

512

513

514

515

516

517

518

519

520

521

522

523

524

525

526

527

528

529

530

531

532

General Omar Bradley (The Alexandrian, 12-1-44)

Schizanthus *schizanthus*



دار شرقيات للنشر والتوزيع

«إن مركز الوعي الذي كان موجودا قبل الموت لا يتوقف بعده، وتجربته بعد الموت لها نفس الاستمرارية مع تجربته قبله، تماما مثل تجربة شخص ينام فترة ثم يستيقظ...»

«دبليو. آر. ماثيوز»

«إن الروح التي رأت معظم الحقيقة، سوف تولد من جديد في هيئة فيلسوف أو فنان أو موسيقى أو عاشق...»

«أفلاطون»

عزيزى رام كريشنا

وصفني ناقد لاذع ذات مرة بأنني منتحل يتظاهر بالخبيل، وذلك لأنني سرقت عنوان قصيدة مجهولة ووضعت عنوانا لإحدى رواياتي القصيرة. وحيث أنني قد لدغت مرة، فهذا أنذا أعلن على الملأ أن هذا عملك أو خيالك أو كما تريد أن تطلق عليه.. ورغم أنك رسام ولست كاتباً محترفاً مثلى، فإنني لا أريد أن يلومنى لائم هذه المرة على العبث بمخطوطة شخص آخر، ولذا أقول أن العنوان الذي اقترحتة لعملك هذا هو كل ما أسهمت به، لأنني رأيتك تظهر من قلب الله و«ياما» كيوم ولدتك أمك، مجرداً من كل دفاعاتك...

أعرف أنك مررت بتجربة مرعبة، ولكن لاتخش لموت، فالموت وإعادة الميلاد هما وجهتا التجربة ذاتها... وإذا كان الموت هو فشل الجسد في مواجهة تحديات الحياة، فإن إعادة الميلاد ليست مجرد عودة ثانية وإنما حلقة في سلسلة لاتنتهي من العودة إلى الأرض لكي نحاول الروح إعادة تجربتها مرة بعد مرة...

بارك الله فيك.

المخلص...

ش. ك.ك...

ملحوظة:

إن وسيلة التغلب على الخوف من الموت، هي أن تمنعه من أن يصبح هما يملكك، وذلك بأن تجعل عقلك يستغرق في العمل... الذي هو الرسم في مثل حالتك. ارسم كثيراً وتناول نساءك بجرعات معقولة.. ففي ذلك خلاصك، ولكن... هل ينبغي لي أن أبدأ بتقديم المواعظ؟!

- ١ -

طقطقت النار واضطربت، اندلعت ألسنة اللهب في الهواء تتراقص مثل كوبرا معصوبة العينين مسحورة بترنيمة كاهن أمام «إندرا»^(١) إله المطر:

ياسيد الماء
يامطهرنا وحافظنا
ومد مرنا
أغفر لنا خطايانا

كان وجودي هنا في معبد «شيفا»^(٢) لحضور طقس النار مجاملة لرئيس جمعية «إخوان اندهرا للإنعاش الاجتماعي»، ذلك الهندوسي الخالص، أكثر مما هو للمشاركة في تلك الشعائر استرضاء للإله. الأمر بالنسبة لي مجرد عمل تجارى، حيث كانت الجمعية قد اختارتني لرسم بعض مناظر الفيضان الجارفة لحساب أحد المعارض المقامة في قاعة اليوبيل، كجزء من برنامج يناشد الضمير العام لمساعدة المتضررين.

ورغم أن الصلوات كانت قد أقيمت كذلك في كافة المساجد والكنائس الرئيسية في المدينة، إلا أن المطر ظل يهطل دون توقف، وقد ارتفع الماء في نهر موسى ليغرق عددا من المنازل على طول شاطئيه وينشر الدمار في كل مكان، وعلى الجانبين كانت الجثث المنتفخة على وشك الانفجار، وهي ملقاة في انتظار من يحرقها أو يدفنها.

وعندما عدت إلى المنزل بعد الانتهاء من الطقس، كان المساء قد حل، وبمجرد أن وطأت قدمي غرفة المعيشة دق جرس الهاتف.

- «من؟»

لا أحد يرد. كررت السؤال: «مرحبا! من؟»

وبعد صمت قصير جاء الصوت:

(١) إله السماء الذي يرسل الأمطار والعواصف والصواعق، وهو أيضا إله الحرب، وإله الشمس التي تولد الحي من الحي ويصور غالبا في هيئة شخص بهي الطلعة يركب فيلا، (الترجم).

(٢) إله اسمه يعنى الميمون أو البشير وينظر إليه على أنه المدمر ولكنه الدمار الذي يسبق الخلق الجديد ويعتبر الثالث في الثالوث الهندى المقدس بعد الإله «براهما» والإله «اندرا».

- «هل السيدة «رام كريشنا» موجودة من فضلك؟» الصوت صوت رجل، متلعثم، سمعته يبتلع ريقه..

أجبت - «ليست موجودة الآن، هل تود أن تترك رسالة؟» وبعد فترة صمت أخرى كان الرجل يتنفس أثناءها بصعوبة مثل عداء مهزوم في سباق الحواجز، قال:

- «حسن! حبذا لو.....»

كان يتكلم بثناقل متعب!

ومثل ضباب عفن في صباح شتوى، ارتفعت بداخلي فكرة كثيفة. ترى هل هو عشيق لزوجتي «مارى»؟

سألت بهدوء: «هل أعرف من يتكلم من فضلك؟»

كنت أحاول أن استدرجه في الكلام رغم نمو الغضب بداخلي..

- «أنا كينيث جورج».

ثم عاد الصمت البارد إلى سماعة الهاتف. تذكرت أن شخصا ما كان قد وضع السماعة قبل ذلك بمجرد أن سمع صوتي.

شعرت بطعم رماد بارد على لساني وتقلص في أمعائي، وانتابني إحساس غريب لاذع مثل ثمرة المارجوزا^(١)، فاستلقيت على الأريكة مشغول البال مشوش التفكير. في الخارج كانت الريح تعوى وحببات المطر الكبيرة تضرب زجاج النافذة، أضأت الأنوار فإذا بالثريا المعلقة فوق رأسي تبدو لي كأنها جثة مدلاة من مشنقة

قلت لنفسي: ماذا يعني هذا الاسم؟ كل شيء! «مارى» إذن قد عادت إلى رفيق مسيحي... يالللغرابه... والذى قد أسمانى على اسم الإله «راما كريشنا»^(٢).. وعندما سمعت صوت سيارة تقف أمام البوابة الخارجية دخلت «مارى»، بادية النظارة والحيوية.

- «أين كنت؟»

- «كنت أتسوق»

(١) ثمرة شجرة المارجوزا الهندية وهي طيبة الرائحة رغم طعمها اللاذع وتستخدم في صناعة الزيوت الطبية - (المترجم).

(٢) «راما هو التجسيد الثالث للإله «فشنو» وهو صاحب الفأس الذي دافع عن البراهمة ضد النهب الملكي و«كريشنا» هو التجسيد الثامن لنفس الإله واسمه يعني حرفيا الأسود ويقال إن الإله «فشنو» انتزع شعرة سوداء من رأسه فأصبحت بعد ذلك الإله «كريشنا» وهو من أكثر الآلهة شعبية لدى الهنود وتروى القصائد والقصص عن مغامراته وعبثته مع الراعيات الأسطوريات وعزفه على الناي ويقدسه رعاة الماشية بصفته رب الإخصاب (المترجم).

- «ومن أوصلك إلى هنا؟»

- «شخص ما أوصلني بسيارته»

قلت وأنا أحقق فيها ساخرا: «شخص ما؟»

- «نعم!»

- «من هو؟»

قلت دون اكتراث: «شخص ما كان يتسوق من محلات «چين»، ألم يكن لطيفا منه أن يقوم بذلك؟ لولاه لكان المطر....» قاطعتها وعيناها مازالتا تفتشان وجهها بحثا عن مفتاح لذلك اللغز

- «كان هناك مكالمة هاتفية لك..»

- «ممن؟»

وبمثل سرعة المصور الذي يرفع يده قبل أن تنتهي ومضة الفلاش قلت - «كينيث جورج».

ودون أي بادرة على عدم الارتياح أو الشعور بالذنب همهمت - «ياه! وماذا قال؟»

- «لا شيء»

ابتسمت - «هكذا؟»

عدت لأسألها - «من هو؟»

كانت نبرتها اللامبالية تقطعني مثل طعنة رمح وبخاصة عندما ضحكت ضحكه مكتومة، اللغز يزداد غموضا! ثم سألتني وهي تهتم بالخروج من غرفة المعيشة: ماذا دهاك يا «رامي»؟ تعجبت بيني وبين نفسي لتلك الوقاحة وأغلقت الباب وراءها. شعرت كأن السقف يسقط فوقني ليدفنني تحت الأنقاض، وعندما دقت الباب بعد ساعة تدعوني لتناول العشاء قلت لها بحدة:

- «لا أشعر بالجوع، واتركيني وحدي من فضلك»

قالت محتدة - «يبدو أنك قد دخلت في حالة من حالاتك إياها».

ثم تركتني.

كنت أذرع الغرفة جيئة وذهابا مستفرا، حائرا، ترتفع سخونة الشك بداخلي وتتعمق الهواجس. هل كنت أحقما مرتين لأنني تزوجت مسيحية، وطالبة من طلبة الفنون عندي أيضاً؟

لم تكن «مارى» رسامة محترفة، كانت ترسم من وقت لآخر... إلا إنها.... وهامي الآن نجد لها عشيقا مسيحيا، ربما كان انتماء الزوجين إلى نفس المهنة سببا في فشل الزواج، وربما كان ذلك أيضا نوعا من ضيق الاختيار أو محدوديته. الرسام لابد أن يتزوج من بائعة في محل، من مهندسة، أو ممرضة، أو طبيبة، أو طابطة... والحقيقة أن أنسب شيء بالنسبة له هو «ربة البيت»، بشرط أن تكون إنسانة بسيطة وجميلة، تطعمه، تدلك له ظهره في الحمام، تنام معه، ثم تتركه بعد ذلك لعمله.

ضبطت نفسي متلبسا بالتحديق في بقعة في سقف الغرفة لها شكل حيوان زاحف واسع الشدقين، يجر نفسه فوق بطنه المرقط المحرشف. في الأسبوع الماضي كنت أبحث عن فكرة للوحة عن الموت.... فكرة لنفسي.. فكرت أن أرسمه على شكل نسر أسود أو حيوان.. وها أنذا الآن أشعر بأن روحا غريبة قد قدمت لي هذا الشكل على سقف الغرفة. وأثناء مراقبتي لهذا الشكل الغرائبي رحت في النوم، وعندما فتحت عيني في الصباح التالي كان هناك أمامي... نفس الحيوان الزاحف يحديق في بعينين سحريتين جاحظتين...

وضعت الحذاء في قدمي، وطردت الفكرة من رأسي ودخلت الحمام وعقلي مايزال مشغولا بالمكاملة الهاتفية، جرحت نفسي أثناء حلاقة ذقني، وجرحت لثتي بفرشاة الأسنان، فتحت الصنبور الخطأ، الساخن بدل البارد، والبارد بدل الساخن وحيث لا أثر ل«مارى» في أي مكان قريب (هل مازالت في السرير؟! طلبت من «رامو» أن يعد لي الإفطار في الشرفة وأثناء جلوسى أتناول إفطاري كان «بيتر» كلبى الأبيض الصغير ذو الشعر الطويل يرقد بالقرب مني، خطمه بين قدميه الصغيرتين وكأنه خائف من ملامحي المتجهمة. نظرت. المطر توقف. الشمس تصعد درجات الأفق. جمرتها البرتقالية تتعمق بالتدريج لتصبح وهج الأيام الأخيرة من شهر يوليو. كان الضوء المتسلل من بين القضبان المتصالبة ينتشر على أرضية الشرفة في مربعات صغيرة.

سألني «رامو» وهو واقف خلفي: «هل تريد مزيدا من القهوة ياسيدي؟» قلت وأنا أنظر في ساعتني: «نعم! لدى وقت لفنجان آخر.» وبعد أن انتهيت من إفطاري ووقفت مستعدا للانصراف ناولني «رامو» جريدة الصباح.

قلت بهدوء: «ولماذا لم تحضرها قبل ذلك، لأنتهى منها مع القهوة؟»

- «آسف ياسيدي»

- «ضعها في السيارة، لاوقت لدى الآن»

- «حاضر ياسيدي»

- «وخبر السيدة «أنني قد أتأخر الليلة ولذلك لا ضرورة للعشاء... ولا لأي شيء آخر. مفهوم؟»

— «نعم ياسيدي!»

من وميض عينيه يبدو أنه يعرف شيئاً ما عن ذلك المرق في علاقتي أنا و«مارى»، وعند خروجي من الشرفة كان «بيتر» يتبعني بنظرات حزينة واهنة وكأنه يقول: هل أنت غاضب مني أنا أيضاً ياسيدي؟ لم تكن حالتي النفسية تسمح لي بأن أدله، حرب داخلية تأكلني!

لم أكد أعبر «جسر ريدي» بسيارتي فوق سكة حديد «بخارى» وحتى وجدت نفسي في ذيل مابدا موكب جنازة طويل. الطريق مغلقة تماماً، معظم السيارات والدراجات تقوم بالالتفاف لتفادي الموكب. عيون الجميع كلها مثبتة على الجسد المسجى.

في مكان عميق مني يكمن خوف شديد من الموت، من أن أغمض عيني هكذا إلى الأبد قبل أن أحقق شيئاً، وكان اهتمامي الأخير بالسيول والجثث يعمق من هذا الخوف الذي أصبح يطاردني في كل وقت وفي كل مكان. صفحة الوفيات هي أول ما أقرأ في الصحف. أدقق في التفاصيل المكتوبة عن الموتى. العمر، الوظيفة، سبب الوفاة.. الخ. وطبقاً لمتابعتي في شهر يونيو على سبيل المثال كانت نسبة المتوفين بأمراض القلب ٥٠٪، بالسرطان ٢٠٪، باللويميا ١٠٪. أما الباقي فسببه حوادث أو جرائم قتل. وإذا كانت مواكب الجنازات تشغلني، فذلك لأنني أعتقد أنها يمكن أن تخضع المرء ضد هذا الخوف من الانقراض. لا بد أن يشارك فيها المرء لتسري عنه كأنها لوحة حية مؤداة على خشبة المسرح. ورغم أن ذلك قد يبدو متناقضاً، إلا أن أفضل طريقة للاستمتاع بالحياة هي أن تواجه الموت نيابة عن الآخرين. تركت سيارتي عند حاجز الطريق وانددمت مع الموكب. ينتابني شعور بأنني مثل أحد الطفيليين الذين يدعون أنفسهم إلى حفلات الزفاف ويتحركون بثقة وهذوء كأنهم من أقارب العروس المقربين، وتذكرت أحد الضيوف الذين جاؤوا إلى حفل زواجي دون دعوة. كان رجلاً عجوزاً ضامر الجسم وقف لصق البوفيه يزدرد برياني الأرز والدجاج المحمر وفطائر الفاكهة دون أن يرفع وجهه عن الأطباق ولو مرة واحدة. كان مثل اللص الليلي الخائف، يجمع الملابس والأشياء من إحدى الشقق على عجل ومستعد للقفز من النافذة قبل أن يدهمه نور كشاف ضوئي.

ولكن الانضمام إلى موكب جنازة شخص لا تعرفه قد يعتبر لحظة من لحات الشهامة... ألا يشبه المشاركة في تكريم ميت مجهول؟ سألت رجلاً رث الثياب يبدو أنه تجار أو عامل لحام:

— «جنازة من هذه من فضلك؟»

— «جنازة «راما سوامي»، ألم تقرأ صحف الصباح؟»

— «لا. «راما سوامي» الزعيم العمالي؟»

— «نعم! مات ليلة أمس في حادث سيارة»

- «آسف، لم أسمع بذلك...»

ثم أسرع الخطى مع الزحام. وهكذا قضى أحد زبائني المتميزين نجه! «راما سوامي» الزعيم العمالي في ولاية «آندرا براديش»، تلك الشخصية المثيرة للجدل. ولكم كانت هناك دائما أسباب قوية لقضاء وقت طويل مع شخص مثله كانت حيويته وصراحته تخلبني دائما. يدفع بسخاء مقابل البورتريه الذي أرسمه له، وكان يشيع البهجة في جو الاستوديو عندما يحضر، ولم يحضر أبدا خالي الوفاض، دائما معه زجاجة «يسكي» أو «چن» ولم يأت وحده أبدا، في كل مرة امرأة جديدة تؤنس صحبته. عندما بدأت المسير مع الموكب تذكرت كيف شنت عليه جريدة في «بومباي»، في الأسبوع الماضي فقط، حملة بسبب فساده، وكيف استطاع أن يجمع ثروة طائلة عن طريق ابتزاز رجال الصناعة في الولاية. والحقيقة أن الجميع يعرف قدرته على إصابة أي صناعة بالشلل التام عندما يدعو العمال للإضراب في أي وقت وفي أي مكان. جاء ذات مرة لزيارتي في الاستوديو وطلب أن أرسم «بورتريه» له، ورحت أثناء سير الموكب أتذكر حديثنا معا بكل تفاصيله.

سألته صراحة: «هل تريد هذا البورتريه لنفسك؟»

قال: «لا... إنهم يريدون أن يعلقوه في القاعة الرئيسية في مبنى اتحاد العمال.. ولم لا؟ لم لا أحصل على نصيبي من الخلود؟»

- «ومن الذي سيدفع ثمنه؟»

- «العمال طبعاً، إذا كنت أحصل لهم على زيادات في الرواتب وعلاوات وإجازات خاصة ومزايا طبية وأجور كاملة حتى أثناء الاضرابات... ألا أستحق شيئاً في مقابل ذلك؟»

كنت مدهوشاً لهذه الأفكار التي لا يشوبها ذرة من تأنيب للضمير، ولكن صراحة الرجل كانت تخفف من غضبي.

كان يقول دائماً: «دعني أقول لك شيئاً، إذا لم يكن بداخلك شرف لن تستطيع أن تصنع أي خير للناس. وأنا لست شريراً إلى ذلك المدى ياسيد «كريشنا»، أنا أشارك الأصدقاء في فعل الخير أيضاً.. الأصدقاء من أمثالك». ونظر في عيني وهو يهمس: «لقد كنت أحضر كل أولئك النساء إلى هنا... تدرى لماذا؟»

- «لا»

- «ألا تحتاج إلى نوع من التغيير بعد كدح اليوم؟ عمل.. عمل.. ولا نصيب للعب؟»

قلت مبتسماً - «بالتأكيد..»

– «هل تروق لك إحداهن؟»

نظرت إليه مستغربا فقال: «أقصد أن بإمكانك أن تختار أفضل من في الباقية.»

ثم لاحظت على وجهه ابتسامة فسق.. «نعم... يبدو عليهن الفقر، ولكن دعني أقول أنهن في منتهى الثراء في الفراش.. الإيقاع.. والرقص الحقيقي» وضحك ضحكة خافتة.

قلت محرجا: «لا... شكرا...»

عند هذا الجزء من الحوار الذي دار بخيالي، نظرت لأجد أن الموكب كان قد اتجه نحو «معبّر جول». في مقدمة الموكب الطويل اثنان من المنشدين يرددان جملة تتلوى في الفضاء نحيبا حادا، خلفهما ثلاثة من قارعي الطبول عراة حتى الخصر، يهزون رؤوسهم وهم يدقون الطبول بعنف شديد، تتدفق منهم حبات العرق غزيرة وتنحدر من رقابهم على ظهورهم التي ألهبتهما الشمس.

فرقة موسيقية إذن ترافق «راما سوامي» إلى «سافارجا»* مستقره الأخير... حيث أتخيل أن سيكون في انتظاره هناك الويسكي والنساء.

عندما كنت أراقب بعض النسوة اللاتي يسرن خلف قارعي الطبول وبعضهن صغير السن وجميل، كنت أتساءل بيني وبين نفسي.. ترى كم واحدة منهن نامت مع الزعيم؟ الوجوه تبدو واهنة وحزينة... ألم يجلب لهن الأجور العالية والعلاوات والمكافآت.. وقبل ذلك كله وبعده... الحب؟! والآن هاهو قد قضى نجه.

هل يولد من جديد؟ هل يولد في هيئة «موريس شيفالييه» أو «كارى جرانت»؟

من أسف أن الخيال الهندوسي لا يسافر بعيدا حتى أوروبا أو الولايات المتحدة، الروح الهندوسية لا بد أن تعود إلى أرضها الأم... الأرض الهندية... تعود في هيئة إنسان – إن كان المرء محظوظا – وربما في هيئة حصان أو بغل أو عجل يجز عربات القمح أو الأرز في شوارع «حيدر أباد» أو «مدراس» أو «أجرا»...

... في هذه الحالة، فإن «راما سوامي» سوف يولد مرة أخرى في هيئة ثور من ثيران الإستيلا!

* العالم الآخر.

تقع محرقة «جيرد هارى لال» في نهاية شارع ضيق يسمى «مارتيو مارج» أو طريق الموت، وهي بناء ضخمة من حجر البنجارا، له بوابة خشبية هائلة وسلسلة حديدية ضخمة تتدلى من خطاف، كأنها مدخل قلعة من قلاع المغول. ولكن المحرقة مفتوحة في جميع أوقات النهار والليل لاستقبال الموتى. وفوق البوابة الرئيسية تمثال كبير للإله «ياما»^(١) إله الموت، بينما تظهر تماثيل صغيرة على كلا جانبي السور الدائرية لآلهة مثل «راما» و«كريشنا» و«جانيش»^(٢) و«سرى فنكاتسوارا».

والمر أمام البوابة تبدو له المحرقة مثل ساحة مفتوحة، وبالقرب من المدخل توجد غرفة يستخدمها كبير الكهنة مكتبا له، وهي مفروشة بأناقة. قطع قليلة من الآثاث المنجد ومعدان من الخشب وطاولة كبيرة يجلس خلفها الكاهن في كرسية الدوار. أمامه على الطاولة سجل ضخمة ذو غلاف جلدى سميك، يسجل فيه بيانات كل متوف: الطائفة، المهنة، تاريخ الميلاد ... الخ.

خلفه على الأرفف التي تغطي جميع الجدران، قدور من الخزف مرتبة حسب الحروف الأبجدية بها رماد الموتى، يأتي أقارب المتوفي لأخذ القدر الذي يحتوى على رماده ليغمره في نهر الجانج المقدس بالقرب من «الله أباد» أو «بينارس» عندما يكونوا مستعدين لذلك.

عندما كنت أجيء إلى هنا لحضور عملية إحراق جثة ما، كنت ألقى نظرة خاطفة على غرفة الكاهن... أو مكتب التخليص الجمركي على الأرواح البشرية!

عندما وصل موكب جنازة «رما سوامى» إلى المحرقة، ظل النسوة في الخارج في مارتيو مارج (طريق الموت)، بينما سار الرجال في وقار خلف الجسد المسجى على محفة تتحملها أكتاف أربعة من المشيعين.

كان باستطاعتي أن أعرف على عدد من الشخصيات البارزة ورجال الصناعة وبعض المدراء

(١) إله الموت الذي يصطحب الأرواح إلى مملكة الظلام وتقول «الفيدا» أنه أول إنسان مات ففتح هذا الطريق الموحش أمام البشر وهو حارس الجنوب الذي يشير إلى الموت. (المترجم).

(٢) إله الحكمة والحظ السعيد وهو ابن الإله «شيفا» والإلهة «بارفاتى» ويتضرع إليه في بداية الأعمال المهمة وقبل السفر كما تهدى إليه الأعمال الأدبية (المترجم).

من القطاعين العام والخاص وكبار المسؤولين في مديرية العمل والواقفين عند البوابة يحملون أكاليل الزهور والياسمين، وعندما تقدم هؤلاء لوضع ما بأيديهم على الجسد كانوا يتطلعون حولهم ليتأكدوا أن العمال يلاحظون ذلك. كان من الواضح أنهم يحاولون استغلال المناسبة للحصول على قرار رسمي بتأجيل دفع ما تراكم عليهم من ديون نتيجة للإضرابات.. ولو لبعض الوقت على الأقل.

بالقرب من الحافة الجنوبية للسور تحت «بقشيش سنج» يقف بعيدا عن الزحام. وجوده هنا أثار فضولي، فمن المؤكد أنه كمدير لمعهد الحاسب الآلى، وهو أحد الأفرع السرية لوزارة الدفاع، كان مؤمنا ضد الاضرابات. توجهت نحوه وأنا أسأله:

— «ماذا جاء بك إلى هنا؟» ثم أشرت نحو كبار المسؤولين عند البوابة قائلا: — «وهل لديك أنت أيضا مشكلات تتعلق بالعمل؟»

ابتسم قائلا: لا.. «أنا هنا فقط لأن شقيق «راما سوامى» الأصغر أحد عملائي..»

— «هكذا؟..»

وبالرغم من أننا كنا نلتقي تقريبا يوما بعد يوم في «نادى النظام» إلا إنني لم أكن قد رأيته طوال الأسبوع الماضى، منذ أن اختارني «جمعيه إخوان اندهرا» لرسم اللوحات. كان الركाम جاهزا لإضرام النار به، والخشب المقطع مرتبا بحيث يوضع عليه جسد «راما سوامى» الملفوف في الحرير الأبيض. وعندما أشعل ابنه النار في الركام وهو يصب عليه الكافور و«الجيه»^(١) تصاعدت ألسنة اللهب في الهواء. وعلى الفور بدأ مساعد الكاهن — وهو شخص أنيق لبشرته لون بنى — في تلاوة أبيات من البهاجا فادجيتا^(٢).

«لا.. ولكن عندما ينضو الإنسان

عنه ثيابه البالية

ويتناول غيرها قائلا

سأرتدى هذه اليوم

هكذا تترك الروح ثوبها الجسد

وتصعد

(١) نوع من الزيد.

(٢) الأنشودة المقدسة وهي إحدى أكبر وأهم القصائد الهندية التي تحتوى على جوانب دينية وفلسفية عميقة وتوجد في الكتاب السادس من المهابهاراتا وينظر إليها باعتبارها أحد مصادر فلسفة الفيدانتا (المترجم).

لكي ترث وجودا جديدا....»

كنت وأنا أستمع إلى هذه الأبيات أتساءل بيني وبين نفسي عما إذا كانت عملية الإحراق الرهيبة للجسد والتي أراها أمامي... تشبه بالفعل عملية استبدال ثوب بآخر.. لدرجة أنني تخيلت «راما سوامي» يصرخ في أي لحظة وسط ألسنة اللهب طالبا النجدة. ولكن الكاهن، الذي لم ينظر إلى الجسد نظرة واحدة، كان مستمرا في ترتيله بصوته البارد.... الرتيب.

طوال الطقوس، كان «بقشيش» يقف إلى جوارى صامتا، بلا حراك مثل أحد الأعمدة، عيناه فقط تنتقلان بين النار والكاهن، ووجهه يرجف بشدة وتتقلص ملامحه ألما واشمئزازا!

الوقت ظهيرة، والشمس بلورة كبيرة معلقة في سماء زرقاء بليدة تلمع من بين مزق السحب البيضاء. لأشعة الشمس أزيز كأنها تستحث ألسنة اللهب التي كانت قد أتت على معظم الجسد وأحالته كوما من رماد. وصل الكاهن إلى نهاية ترتيله وأصبح صوته طنين نحلة تطير.....

«يأتي الميلاد دون أن يفهمه أحد

ويأتي الموت دون أن يفهمه أحد

وبينهما

تدرك الكائنات كل شيء...»

بدأ الزحام في الثلاثى. وسرعان ما فهمت أن أقارب «راما سوامي» المقربين سيقفون هنا إلى أن تخدم النار تماما. توجهت أنا و«بقشيش» نحو البوابة الرئيسية ونحن مانزال تحت تأثير ذلك المشهد الرهيب. أن نشق طريقنا وسط بحر المشيعين عبر طريق الموت كان بمثابة المرور عبر المطهر... ولم تهدأ أعصابي إلا بعد أن وجدت نفسي في الناحية الأخرى.

سألته: «أين تركت سيارتك؟»

قال وهو يشير إلى عمود إنارة قريب: «هناك....»

- «أما أنا فقد اضطررت لترك سيارتي خلف معبر «جول»

- «دعنى إذن أوصلك إلى هناك!»

- «شكرا»

قلت ونحن في السيارة: «لماذا لا تنتظر حتى ينتهي الزحام أولا وإلا سنضطر للزحف خلفهم

بيطء...»

- «فكرة لأبأس بها..»

جبينه المقطب يشي بأنه لم يتخلص بعد من أثر مشهد إحراق الجسد...

- «أما زلت هناك؟»

- «لا أدرى... ألم يكن مثل شخص يشهد جسده وهو يحترق؟»

ساد بيننا صمت قصير.

ثم سألته: «هل تؤمن بالميلاد مرة ثانية «يا بقشيش»؟»

- «نعم»

قلت مستغرباً - «مع أنك من رجال العلم..»

قال بكل ثقة - «بالعكس، العلم أكد اقتناعي...»

- «كيف؟»

- «انظر... إن الله ليس مدير مخزن. فما الذي يجبره على جمع الأرواح وتركها تتكسد في مخزنه، بينما الشيء المعقول هو أن يعيد تدويرها في الحياة؟ مثل الشمس عندما تبتلع مرة أخرى من رحم ليل مظلم إلى صباح جديد، والبحر الذي يتحول إلى بخار ومطر ثم إلى البحر مرة أخرى، مثل أصحاب محلات البقالة الأمريكيين عندما يطلبون من زبائنهم إعادة زجاجات الكولا الفارغة وعلب الصفيح. عملية احتفاظ بالطاقة. وإلا سيكون على الله أن يستخدم أجهزة الكمبيوتر لتسجيل أرقام الضمان الاجتماعي لعدد لا يحصى من الأرواح»

- «لم أكن أتصور أن لديك نظرية بارعة عن هذا الأمر».

كنت مفتوناً بتفسيره المدهش..

- «حسن!، هذه مسألة بدهية، وليست خيالاً كسولاً..»

سألته - «وهل تؤمن بالكارما* أيضاً؟»

- «هنا كذلك يكون لديك التفسير الوحيد المعقول لما قد يبدو تقلبات وتناقضات الحياة والموت- ميلاد طفل متخلف، الموت في حادث أو بسكتة دماغية أو لأي سبب آخر. إن مانراه

* «كارما» كلمة سنسكريتية تعني حرفياً الفعل والمصير وهي مصطلح في التراث الديني للهندوس يشير إلى مجمل أفعال الشخص في واحدة من حالات الوجود المتوالية وهي تقرر ما سيكون عليه وضعه في الحالة التي تعقب ذلك بعد أن تحددت بالحالة التي سبقتها، وهكذا إلى أجل غير معلوم في دورة سببية أزلية تدعى بالسنسكريتية «سمسارا» وهي العالم الذي تتناسخ فيه أرواح الكائنات الحية وأرواح الألهة.

نحن الفنانين ليس سوى رأس دائرة عملاقة مستمرة في الطحن... دعنا نقول... تحت الماء، من خلال عمليات لا تتوقف.. جيدة أو سيئة..

الأشياء التي تطفو إلى السطح سواء كانت ملطخة بالطين أو مغسولة ونظيفة بفعل الماء الرائق إنما هي تجسيد لما مرت به العجلة دون إدراك. المجيء المفاجئ للميلاد أو الموت يدهشنا لأننا لانرى إلا قوسا مكسورا، قطعة صغيرة، ولكننا لانرى المحيط الكامل لتلك العجلة الهائلة التي تجسد حياتنا قبل الميلاد، تتاسخ أرواحنا الماضى، وذلك هو الذي يقرر نمط ومدى وجودنا، ولكن المأساة أن الإنسان الذي لا يعي شيئا غن وجوده السابق يتخبط في حياته الآتية غير مكترث بأي من معايير السلوك الأخلاقي».

ثم ساد صمت غير طويل، كان وجهه يتوهج أثناءه في رهبة تحت عمامته القرمزية الكبيرة المنشأة والشعرات الرمادية التي تلمع في لحيته الكثة. وبالرغم من أن «بقشيش» كان عادة ما يربكنى بمزجه الغريب بين الدين والعلم، إلا إن عملية إحراق جسد «راما سوامى» يبدو أنها قد ألقت به في لجة من التفكير العميق.

قلت: «أنت تعرف يا «بقشيش» أن رجلا مثلك سوف يولد مرة أخرى في هيئة إنسان، ولعائلة نبيلة كذلك».

قال وهو يخفض عينيه خجلا: «لست متأكدا...»

ولكن بالنسبة لـ«توني» فأنا متأكد تماما أنه سيولد مرة أخرى في هيئة «برهمى»*. يقول ذلك وهو يرفع عينيه كما لو أن مجرد التفكير في حيوانه المدلل قد سما به... على مدى الثمانية عشر عاما التي عرفته فيها كنا نشترك في حب شيئين: الكلاب والموسيقى. بعد موت «قيصر» كنت قد قررت أن أحتفظ بكلب واحد: «بيتر». ولكن «بقشيش» لم يحتفظ أبدا بأقل من ستة أو مايقرب من ذلك، سواء كانت من الكلاب الأصيلة أو الهجين. كان يمكن أن يلتقط كلبا ضالا من أي مكان ويجئ به إلى زوجته ويطلب منها أن تطعمه وتسقيه. وهكذا لم يكن «توني» بلا ضيوف أو أصدقاء يجوسون في فناء المنزل الخلفي. ثم استأنف «بقشيش» كلامه:

«تعرف، عندما كنت أراقب عملية إحراق الجسد فكرت في أن أنظم من أجل «توني» نفس مراسم الوداع... الكافور والزبدة والتراويل... ثم أذهب لغمر رماده في نهر الجانج المقدس. «توني» يستحق ذلك بالفعل لأن روحه سوف تصعد إلى «سفارجا» مباشرة. التزام الكلب خالدا ودائما، فهو يسلم إرادته لمشية سيده، لا نفاق عنده ولا جشع!»

* واحد من طبقة الكهان المقدسة في نظام الطبقات الهندوسى (المترجم).

قلت: «فلأعترف إذن بأنني أذنبت، فقد كنت فظا مع «بيتر» هذا الصباح».

قال: «هي قسوة عقلية، هذا مالا بد أن يشكو منه، ولكن تلك المخلوقات لا تتخلى عنك أبدا، إنها تبقى معك حتى يفرق بينكما الموت»... ثم أضاف بعد لحظة «ولكن لماذا كنت فظا معه؟»

- «حالة من حالاتي على ما أظن. لم أكن لأسمح له بالتدخل في شكي بالنسبة لـ«ماري»، رغم أنني قد أشركته قبل ذلك في كثير من الأمور الخاصة. هناك أشياء لا بد من حجبها عن أقرب الأصدقاء. معارك لا بد أن تخاض في المناطق الصامتة من الروح».

وحيث كان آخر المشيعين قد رحل، وأصبح طريق الموت هادئا، أدار «بقشيش» محرك السيارة وعندما أوصلني إلى مكان سيارتي قال: «لماذا لاتأت لتناول العشاء معي؟»

قلت وأنا أبتسم - «للأسف لدى أشياء أخرى لا بد من إنجازها هذا المساء»

- «ريزيا؟»

- «نعم..»

- «بعد كل ذلك؟ هذا شيء محير!»

- «قد أكون في حاجة إليها كترياق لهذا اليوم المروع»

- «أتمنى أن يفيدك...!»

- ٣ -

إذا كنت أريد أن أقضى المساء مع «ريزيا»، فإن ذلك في الحقيقة كان بقصد التخفف من همومي... ولاشيء أكثر. كل شيء مرتبك منذ مساء أمس، لذا اتصلت هاتفيا بعد غداء سريع في «نادي النظام» بـ«جوس» ساعي الاستوديو الخاص وطلبت منه أن يبلغ «كث كيشوري لال» بضرورة حضوره جلسة الغد للانهاء من رسم البورتريه الخاص به، «البورتريه انتهى تقريبا، لذا فإن تأخير يوم واحد لايهم». بعد ذلك قررت أن أذهب إلى مكتبي في الأكاديمية لمراجعة بعض الأوراق، ومن هناك يمكن أن أذهب مباشرة إلى «ريزيا».

عندما وصلت إلى منطقة «قصر جولشان»، فوجئت بوجود عدد من رجال الشرطة يجوسون حول المساحة المزروعة بالحشائش. اثنان منهم يتهامسان بالقرب من النافورة الرئيسية، ولكنني واصلت قيادة سيارتي حتى مقر «ريزيا» في آخر القصر.

قالت وهي تطل من النافذة: «يالها من مفاجأة!». صعدت السلم حتى قاعة الانتظار.

قالت: «أفتقتلك اليوم كثيرا»

- «صحيح؟»

- «كنت في ميسيس الحاجة إليك»

- «وأنا أيضا... ولكن ماذا تفعل الشرطة هنا؟»

بدت علامات الجذ على وجهها وقالت: «سأخبرك بكل شيء، ولكن ماذا تريد بداية أن تشرب؟ ويسكي؟ جن؟ شميانيا؟» وبعد لحظات سألتها مرة أخرى. ماهي حكاية الشرطة؟

قالت وهي تزيج خصلة شعر من على أذنها اليسرى:

- «الشرطة هنا بسبب ما فعله أخى... لقد اغتصب ابنة أحد عمال الحديقة ليلة أمس،

فتاة قاصر.. مسكينة.. نرفت وكادت أن تموت... شيء مرعب.. أليس كذلك؟!»

قلت وأنا انكمش في مقعدي: «شيء فظيع بالتأكيد، ولكن من الذي استدعي الشرطة؟»

— «الخدم... ولأن «بابار» هرب، فإنهم يوجهون الاتهام إلى أبي... إنه يستحق ذلك..»

— «يا إلهي! هذه كارثة!»

كانت «ريزيا» قد أخبرتني قبل ذلك أكثر من مرة أنها تكره والدها. تكرهه لأنه داهمها ذات مرة في غرفة نومها وحاول أن يغتصبها.. تكرهه لأنه هو الذي أوصل أمها إلى الموت.. والحقيقة أن «نواب سليمان علي» الذي يرجع أصله إلى الحكام المغول كان نموذجاً للدرك الأسفل من التفسخ الإقطاعي. ورغم أن جد «ريزيا» كان رئيساً للوزراء، وكان يمتلك عدداً لا بأس به من العقارات في المدينة وضواحيها، إلا إن والدها وجد نفسه بعد ضم الولاية بواسطة الحكومة الهندية يعيش على الممتلكات التي آلت إليه بالوراثة، وفي كل عام كان يبيع منزلاً أو عربة لكي يحتفظ بحاشية وبكثيبة من الطبائخين والسائقين وعمال الحدائق والحراس.

ورغم ارتفاع ضغط الدم والقرحة، ظل مدمناً لأنواع الويسكي الفاخر المستورد والأطعمة الحريفة وصلصة التوابل وأوراق «البناراسي»* التي يحشوها بالتبغ التركي ويظل يمضغها بلا توقف. وإذا كان يبدأ صباحه «بالبورجندي» فإنه يواصل طوال اليوم مع «الهندي وكر» و«البلاك دوج» حتى الغروب. بعد ذلك ربما كانت هناك مباراة طويلة في الشطرنج مع «سمرخان» أو «شودري بركات علي» وكلاهما من أصدقاء الطفولة. أما في عطلات نهاية الأسبوع فإن سكرتيه الخاص يقوم بترتيب برنامجاً لتسلية سيده: صراع ديك، قتال حتى الموت بين نمس وكوبرا... وأحياناً مجرد عرض للقردة. «نواب سليمان علي» في أواخر العقد الخامس من العمر، ولكنه لم يرح فترة المراهقة بعد. أما نقطة ضعفه الكبرى فهي بنات الرقص المحترفات، فهو يعتقد أن لا متعة في النوم مع امرأة إلا إذا كانت تستطيع القيام بعملين آخرين... أن «تتلى أو تغني» على حد تعبيره.. وحيث أن الدعارة كانت قد منعت رسمياً، كان على سكرتيه الخاص أن يبحث عن الفقيرات الجميلات اللاتي يمكن أن يدعوهن «كمغنيات أو راقصات» لتقديم عروضهن في «قصر جولشان».. بعد ذلك تستبقى إحداهن طوال الليلة كمقدمة لمسرحية الصباح. أما أشد ما كان يؤلم «ريزيا» على نحو خاص، فهو تذكرها لقسوة أبيها البالغة تجاه أمها.

كانت «البيجوم سلطانة» تشاهد زوجها كل مساء مع عشيقته الجديدة، وكان «نواب سليمان» يتباهى أمامها بخياناته.. وبكل تبجح..... إلى أن قضت عليها ذات ليلة جرعة زائدة من الحبوب المنومة. وبالطبع، كان طبيب «نواب» الخاص يعلن في الصباح التالي أن سبب الوفاة «تسمم بالطعام» فأقيمت مراسم الدفن في مقابر الأسرة حيث يوجد الآن شاهد رخامي يحمل أبياتاً من الشعر الفارسي هي رثاء «نواب» «لزوجته المحبوبة البيجوم سلطانة»:

* أوراق نبات متسلق يسمى التامول أو التنبول ينمو في مدينة بارناس الهندية وهي تلف مجففة وشديدة الحرارة مثل الشطة (المترجم).

أيضاً «إلى أن أغمض عيني أنا أيضاً..

ويجف الدم في عروقي،

تبقين أنت نجمي القطبي المضيء،

ترشدين خطواتي

وتبددين كل الأحزان»

زوجك الحزين أبداً.....

خان بهادور نواب سليمان علي.....

كان ذلك كله يدور بعقلي وأنا أحدق في وجه «ريزا» الذي كان ينتقل بين الحيرة والاشمئزاز. استأنفت حديثها بصوت ساخر:

- «سيتمكن من إخماد كل شيء، يبيع منزلاً آخر، ربما يكون المنزل الأخضر في «حيدر جودا» لكي يعوض عامل الحديقة عن اغتصاب ابنته ووفاتها، والشرطة على تعاونها» ثم لوت قسمات وجهها في ضحكة ساخرة. «وهكذا ترى كم كنت محتاجة إليك هذا المساء حتى لا أفقد صوابي في مستشفى المجانين هذا» وبعد لحظة صمت قالت: «أليس هذا نوعاً من الأورجازم الذهني، عندما يرغب حبيبك كل منهما الآخر في نفس اللحظة؟» ولمعت عينها في الظلام مثل عينا حيوان.

سألتها بهدوء: «وأين جثة الفتاة الآن؟»

- «في جناح الخدم، ولكن بمجرد أن يغطى والدي كل شيء فسوف يكون الخبر أن سبب الوفاة «نزيف» أو أي شيء من هذا القبيل... وربما سكب بعض الدموع أثناء الجنازة!»
- «شيء مثير!»، قلت ذلك وأنا أستعيد كيف إنني منذ الصباح واقع في عنكبوت حالتي وفاة...

- «ولكنك لم تسأليني ماذا كنت أفعل!»

- «ماذا؟»

- «أنا قادم لتوى من جنازة..»

- «جنازة من؟»

- «راما سوامي»

- «الزعيم العمالي؟»

- «نعم!»

- «أعتقد أن «بابار» كان يعرف الرجل، وحدث مرة أن كان بينه وبين أبي خلاف صغير بخصوص بعض العمال في عزبة لنا.. كان رجلاً ذكياً... أليس كذلك؟»

- «نعم... وانتبهي... أعرف أنني كان لابد أن أعود إلى المنزل للاغتسال وتغيير ملابسني بعد عملية إحراق الجسد، وكما تعرفين فإن المشيع الهندوسي يفترض أنه غير طاهر حتى...»

- «حتى يستحم.... لا توجد هناك مشكلة يا عزيزي يمكن أن أعد لك كل شيء الآن وهنا... الدش في حمامي وقميص وسروال من ملابس «بابار»... وبعد ذلك يمكن أن تأتي إلى الفراش! ألا يبدو ذلك الوسيلة الوحيدة للاستمرار في هذه الحياة؟».

فاجأتني رباطة جأشها. كيف يمكن أن تفكر في ممارسة الجنس بينما أشباح الاغتصاب والموت تحوم فوق رؤوسنا؟! وقبل أن أرد عليها اندفعت خارجة لكي تحضر لي ملابس «بابار».

جالسا في مقعدى مشدوها، كنت أحقد في كل ماحولي ولا أرى شيئاً، وفجأة وقعت عيناى على لوحة «الراقصة» من أعمال «ديجا» وفوق اللوحة رأيت سحلية صفراء مرقشة تزحف قاصدة حشرة صغيرة غافلة. كان بطن السحلية الذي يشبه قشرة البصلة يتمدد إلى الأمام على مخالباها العنكبوتية وأنيابها تتحرك مثل أنياب الكوبرا... ثم انقضاض مفاجئ مميت لتختفي الحشرة داخل فم السحلية! وهكذا زالت من الوجود نقطة كانت تتحرك على الحائط..

عادت «ريزيا» حاملة كيسا به بعض الملابس، ثم قالت وهي تشير ناحية الحمام... «الدش ينتظرك هناك... وأنا هنا... تعال بسرعة... نظيفا... وطازجا...» ومن داخل الحمام سمعتها تصدر أوامرها لخدمتها:

- «ممتاز... ليس مسموحا لأحد بالدخول هذا المساء... مفهوم؟». عندما خرجت من الحمام كانت «ريزيا» متجردة من ثيابها تماما، جذبتني إلى السرير الواسع... بجواره طاولة صغيرة عليها زجاجة شمبانيا كبيرة وكأسان. يا إلهي! ستلتهمني كما فعلت السحلية!

شعرت لأول وهلة بأنني أدفع دفعا لممارسة الجنس، وبينما أنا واقع في الفخ لاحول لي ولا قوة أرقد بجوارها منكمشا فاقد الحس.. قالت وأصابعها تمرح على جسدي كله:

- «حبيبي... مالك بارد كالجثة؟»

- «أنا؟»

- «تأثير الجنازة.... ما يزال...؟»

– «والاغتصاب أيضا!»

– «لماذا لاتطرد كل ذلك عن ذهنك؟»

– «ليتنى أستطيع.. لماذا لانام هكذا معا دون جنس؟»

– «ليتنى أستطيع..! ولكن أكون ذلك أمرا طبيعيا؟»

كانت تضميني وتضع رأسي بين نهديها...

قلت- «وماهو الطبيعي؟»

راقد أنا معصوب العينين تقريبا. عيناى وأنفى وفمى غارقة فى دفء ونعمة وادى التهدين... راقد أنا فى سكون... فكرت... لماذا لا يكتفى المرء بالنوم هكذا بدل أن يمزق كل منا جسد الآخر خمشا وعضا وهو يصرخ ويتأوه؟

فجأة، قامت «ريزيا» وألقت برأسها على وسادتها..

– «ما رأيك بقليل من الشمپانيا؟»

– «لا بأس...»، قلتها همهمة وأنا أحاول الخروج من حصار أفكارى..

بعد جرعة عميقة، وجدتنى متلبسا بمراقبة جسدها.. خطوطه وكفافه وثناياه واستداراته، مده وجزره... وهاهى ابتسامة رقيقة ترفرف على شفثيها... «ريزيا» تعرف أنني أشرب فى صحة جسدها، ذلك المستلقى إلى جوارى مثل كثيب شكلته رياح الصحراء المتمردة فاستحال جذع تمثال لامرأة أرى حلمتى لثديها ولون القهوة حولهما... حلمتان متحدتان في من فوق صدرها العامر كأنهما عينا إله!

تخيلت جسدها معلقا فى الهواء بخيوط من حرير لاتراها العين، ولأننى كنت دائما أمنى نفسى بأن أرسمها عارية رحت أتخيل صورة ذهنية لجسدها!

– «تبدو غريبا جدا!»

– «أنا؟»

فجأة اقتحمت أسماعنا ضجة من الخارج: «نريد العدالة، لايد أن نتقم»، ثم تبع ذلك صراخ وعويل. نهضت «ريزيا» من الفراش شاحبة خائفة وهي تقول بصوت مبجوح: «لايد أنهم الخدم، يبدو أننا مقبلون على بعض المتاعب». أما بالنسبة لى فكانت تلك الضجة نجدة إلهية. شعرت أنني هربت هذا المساء بمعجزة من أن تغتصبنى أخت «بابار»، إلى جانب أنني لم أكن

أريد أن أزج بنفسي في مشكلتها.

- «أعتقد أنني لا بد أن أنصرف، وآسف على عدم...»

عندما عدت إلى المنزل متأخرا في ذلك المساء، شعرت بالراحة لأنه كان مظلمًا وهادئًا. فتحت البوابة الخارجية وتسلمت إلى الشرفة الأمامية ومنها إلى غرفة المعيشة لأنام ليلة أخرى على الأريكة. جرى «بيتر» نحوي ونبح نباحا معتدلاً.. مرحباً بي.. حملته وداعبته تحت رقبته لعلني أكفر عن قسوتي عليه ساعة الإفطار. قلت بيني وبين نفسي، «أنظر يابقشيش، لقد عدنا أصدقاء، لقد عفا عني». ولكن نباحه أيقظ «رامو» من نومه فظهر أمامي وعيناه ثقيلتان بالنوم:

- «معذرة ياسيدي، غلبني النعاس، هل تريد بعض القهوة؟»

- «لا.. شكراً..»

ثم أشرت إليه بالخروج من الغرفة. وأثناء استلقائي على الأريكة لحت عيني مرة أخرى تلك البقعة الرطبة الموجودة بالسقف، كانت حرارة الجو قد جففتها بعض الشيء فأخذت شكلاً جديداً أكثر غرائبية من ذلك الذي كنت قد رأيته في الصباح.

الحيوان الزاحف ذو الشدقين الواسعين مُسَخَّ فُأصبح هامة يقطر الدم من فمها. قفزت وأضأت كل أنوار الغرفة التي كانت غارقة الآن في وهج الثريا المعلقة ولمبة الفلورسنت في حوض السمك.

كانت الغرفة ساكنة إلا من دقائق ساعة الحائط وصوت ارتطام الستائر بزجاج النافذة. ومن الناحية الأخرى من الممر كان صرير الثلاثية يأتي مثل أزيز خنفساء متواصل، أما خارج المنزل فكان حذاء الحارس بما في نعله من مسامير يثق الأرض دقا...

لم أكن قد أدركت قبل ذلك أن الليل أصواته الخاصة. أشعر أنني أقع بالتدريج تحت تأثير مس شيطاني لا بد أن أطرده على نحو ما كي أخرج منه، ولأن من عادتي أن أقرأ شيئاً مبهماً في الليل لكي أنام، تحركت إلى رف الكتب وتناولت كتاب «سوار جاناندا»: «الحياة بعد الموت»، ولكن بعد أن قلبت بعض صفحاته كانت النتيجة أنه ضاعف حزني وشعوري بالاكتئاب. وضعت الكتاب على الطاولة الصغيرة المجاورة وتناولت مجموعة لشاعر يكتب بلغة الـ«تيلجو»* متصوراً أنه سوف يهدئ من روحي المضطربة. وبينما أنا أقلب صفحات ذلك الكتاب ذو الغلاف الأحمر، وقعت عيني على قصيدة بعنوان «محرقه أديكمت - حيدر أباد!»
ياإلهي!

* من أشهر اللغات التي يتحدث بها عدد كبير من سكان شبه القارة الهندية (المترجم).

لابد أن روحا شريرة ترفرف فوق في هذا المكان، وقبل أن أترك الكتاب من يدي وجدتني أقرأ السطور الأولى من القصيدة:

«ضجيج شحاذين لا ينتهي،

ترانيم

جمجمة تنهض من فتحة مصرف

هامة جائمة على الحائط

تفكر في جشع الإنسان

لحم يقدم للنار

والعظام والرماد للجناح

وفي داخل الفناء

ست منصات عارية من الطين البني

استحالت إلى لون الرماد

تحت النار المشتعلة منذ قرون

تتغذى على القرفة والكافور والزبدة

هنا تستعوض الأرض نفسها

تمحو اسما

لترحب بقادم جديد

الآن، يشعل ابن ركام والده

ويتحول العالم إلى حريق

ويرفع الكاهن صوته بالترانيم

من أجل مكافأة أكبر..»

ثم بدأت أغوص في نوم عميق، مظلم مثل كهف، بحر بلا قرار... نفق ليس له نهاية..

جلست فوق تل صغير أرسم تخطيطاً أولياً لمنظر الفيضان. أمامي يصطبغ نهر موسى ويتمور مثل حوت هائل يتقلب على جنبه فيحدث في الماء جيشانا عنيفاً. موجة عاتية من المد تنطلق عبر الشاطئ تنذر باجتياح أي شيء يقع داخل قوسها، ولكن عدداً من الأطفال الذين كانوا يلعبون على الشاطئ لا يشعرون بأي خوف... كل ما يفعلونه هو أنهم يفرون نحو سفح التل كلما هددتهم الأمواج بالاقتراب.

فجأة، جثم ظل فوق دفتر الرسم الذي أمسك به، ثم امتدت يد ضخمة. وقبل أن أتمكن من الاستدارة دفعتني بعنف فتهاولت إلى أسفل، وبدأت أندرج نحو الماء مثل كرة البلياردو. أحاول أن أثبت قدمي في الرمال والصخور لأوقف انزلاقي دون جدوى، وأثناء ذلك رأيت شرطياً يقوم بحراسة ممر جانبي، حاولت الصراخ طلباً للنجدة ولكني لا أجد صوتي، وقبل أن تبتلعني الموجة رأيت رجلاً يلوح بيده من فوق قمة التل «أتمنى لك وقتاً سعيداً هناك يا سيد «كريشنا»... إلى اللق... ١... ١... ١...!!» تعرفت على ذلك الصوت في الحال، إنه صوت «كينيث جورج». كانت المياه المضطربة قد غلبتني وقدرتني على المقاومة انهارت، حاولت السباحة فخذلتني ذراعي، فوق عيني غشاوة كثيفة... وأنا أغرق... أغرق... ويشدني تيار تحتني نحو الأعماق.. كنت ملاكماً مهزوماً يترنح على حبال الحلبة! ومن حشجة في حلقي عرفت أنني أموت، ومن قلبي تصاعدت زفرة أخيرة إلى حلقي محدثة صوتاً كالصفير ضائعاً بين فقاعات الماء. متحرراً من جسدي بدأت في الانجراف خفيفاً تحت الماء، ضعيفاً كالريشة... وعلى البعد مني كان جسدي يبدو واضحاً... منفصلاً عني... ولاسيطرة لي عليه!

هبط على إدراك غريب، أشعر أن جسدي لم يعد له علاقة بي... وبأنني بعيد... بعيد عنه تماماً. متحرراً من وجودي المادى أصبحت مجرد شعور... ولا أكثر من شعور!

في هذه اللحظة، قدمت نحوى مسرعة كتلة سوداء من الماء اللزج، انتفخت وانفجرت وتحولت إلى دوامة برز منها وجه خرافي مرعب يشبه تمثال إله الموت الذي شاهده على البوابة الرئيسية لمحقة «جيرد هاري لال».

ابتسم الوجه ساخراً: «أتمنى أن تكون تعرفني!»

قلت بصعوبة: الإله «ياما»

فوجئت بأن صوتي الذي كان محبوسا منذ دقائق قليلة يخرج مني الآن واضحا وجهيرا، كما أدركت أن الموت رغم أنه قتل كل حواسي الأخرى إلا إنني كنت أسمع وأرى.

قال الصوت الخشن: «نعم أنا، وواثق كذلك من أنك تعرف ماذا ينتظرك».

- «أنا أعرف فقط أنني خائف...»

- «حسن ! ستمر الآن بتجربة، هي سكرة العودة إلى أهلك وأصدقائك وغيرهم، ستظل ترفرف في الأثير لمدة ثلاثة عشر يوما، سترى البشر والحيوانات وتسمعهم، ستسمع حتى ما يدور بعقولهم من أفكار، ولكنك لن تسمع أفكار الأرواح الأخرى رغم إمكانك التحدث إليها، وذلك لأن لكل روح سريتها وخصوصيتها التي تنفرد بها.

ستلاحظ أنه باستثناء والديك وكلبك واثنين من أصدقائك لا أحد من البشر يفتقدك، لذا يجب أن تستعد لمواجهة صدمة معرفة الذات، إنها أشد عذابا وأكثر هولاً من موتك، والحقيقة أن هناك أكثر من مائة في انتظارك... إنه عالم غريب ذلك الذي دلفت إليه».

قلت: «لا أستطيع أن أتخيل ذلك، ويبدو أنك أكثر طيبة من أهلي».. قاطعني قائلاً: «أنا لا أحب التملق، ولو تركتكم بني البشر تملقوني هكذا فلن أستطيع أن أقوم بعملى».

ورغم رده الفظ، شعرت بأنه لم يكن شديد القسوة معي، ولكنني مع تزايد فضولي فكرت أن أسأله عن الحياة بعد الموت.. «أعرف أن لابد أن أكون مستعداً لتحمل كل ذلك العذاب أو كما قلت، عن حق، صدمة معرفة الذات، ولكن ألا يوجد أي افتداء لشخصي مثلي؟ أتصور أن في مثل حالتي لابد أن يكون هناك تبريرا كافيا لبعض زلاتي على الأقل».

رد بحدة: «أي تبرير؟! يبدو أنك ضحية لتضليل الذات!»

واضح أنني قد زدت من ثورته بدل أن أهده.. «أقصد أنني أعرف أن كان لي علاقات نسائية، ولكن أنت تعرف أنه كان لابد لي من دراسة أجسادهن من أجل أعمالى الفنية، كيف كان يمكن أن أرسم صوري العارية لولا ذلك؟ كانت تلك الدراسة وسيلتي للتعبير عن الامتنان والإجلال والتسبيح بحمد الخالق المصور الأعظم».

لقد كنت أريد أن يفهم الجميع أن أى فنان من البشر لا يستطيع أن يحاكي قدرته جل شأنه على اللون والإيقاع. وتصوير الأجساد العارية بالنسبة لي كان بمثابة العبادة.. فالرسم، مثل الكاتب، عليه أن يغوص في الخطيئة من وقت لآخر لكي يبصر الفضيلة من منظورها الحقيقي... بالضبط كما يستدل على الاتجاه بفقدان الاتجاه..»

وهنا ضحك وهو يقول: «تردد كلمات «شيكسبير»؟! ياخبث العقل البشري! إنه يلوى كل شيء ويطوع كل شيء لكي يخدم أغراضه».

وبرغم تقريره لي، إلا إنني كنت سعيدا. حتى «ياما» كان يعرف «شيكسبير» جيدا وشجعني ذلك على مواصلة الحوار..

فقلت: «معذرة!، لقد خائني التعبير، لم تكن الكلمات أبدا هي لعبتي كما تعرف، فأنا مصور»، ثم واصلت بعد صمت قصير «كل ما أردت أن أقوله هو: أليس حب المرأة... أليس الاتصال الجنسي مبارك في كل الكتب المقدسة؟»

— «أي كتاب تقصد؟»

ورغم أن صوته كان غاضبا إلا أنه بدا مهتما. كنت سعيدا لأنه يتحرك معي في اتجاه جدل لاهوتي.

— «سوف تردد ما قاله «سيفيتاكيو» لـ «جاوتام»^(١) في «يريهيا دارانياكا»^(٢) عن ممارسة الجنس!

البقعة السوداء ساكنة تماما... وكأنها قد تجمدت في حالة ترقب..

— «هل كنت فيلسوفا أم رساما؟»

— «ربما الإثنين معا....»

وسرعان ما شعرت بأنني لا ينبغي أن أكون هازلا إلى هذا الحد، إلا إنني أصبحت غير مدرك للموقف الخطير الذي كنت فيه.. ثم واصلت الكلام... «في هذا الكتاب يعرف «جاوتام» أن المرأة أيضا نوع من المطهر وأنه من خلال الاتصال الجنسي قد يكسب الإنسان نفس الثواب الذي يمكن أن يناله من طقس النار... فشعر المرأة هو الدخان، وفرجها اللهب ومشاعر اللذة هي الشرر...»

سمعته يقهقه ويقول: «قف! بالضبط مثل الشيطان عندما يعط، ولكنك أسأت تماما فهم تلك النصوص. الجنس هنا مبرر فقط لأنه وسيلة للتناسل وليس كهدف في حد ذاته. هل تعتقد أن الإله الأعلى يمكن أن يقبل الجنس غير الشرعي الذي كنت تمارسه مع...»

(١) جوتاما سدهارتا بوذا (بوذا تعني المستنير أو المستيقظ وهو أحد ألقابه) - المترجم

(٢) نصوص الغابة وهي خاصة بالنسك لكنها يمكن أن تهدى لكبار السن الذين تركوا أهليهم ليقيموا في الكهوف والغابات وهي تهديهم لأعمال سهلة يقومون بها بدلا من القرابين التي أصبحوا يعجزون عن تقديمها. (المترجم).

« ريزيا؟ »

رد بسرعة - « نعم! أنا سعيد لأنك ترى ذلك بوضوح ومباشرة. »

قلت - « ولكنك سوف تتذكر لو تفضلت بأني في آخر مرة كنت معها في الفراش ولم أفعل سوى رسم صورة ذهنية لجسدها. هذا كل ما حدث. ألم يكن ذلك ضربا من التأمل والتفكير؟ »

- صورة ذهنية! تحاول أن تخدعني! لقد كان الجنس بالنسبة لك انغماسا في الشهوة، وليس وسيلة للتناسل، فأنت لم تخرج من صلبك حياة. »

- « ربما كانت « ماري » هي السبب...! »

- « ومن يعرف؟ »

- « نعم أنا متأكد، فقد بذلت كل ما في وسعي. »

- « وهل هذا يكفي؟ »

كان في صوته رنة سحر..

قلت - « أنا أعرف فعلا، « ماري » كانت عاقرا، وكذلك من ناحية الأمانة الزوجية. »

قال - « انظر.. من الذي يحتاج.. أنت تتكلم كما لو كنت عليما بكل شيء. سوف ترى بنفسك من المسؤول عن ذلك... »

وبعد صمت قصير قال:

- « لا أعرف لماذا تركتك تثرثر! أنا عادة لا أبقى مع أي روح لمثل هذا الوقت الطويل، هناك كما تعرف مئات الألوف يجيئون طوال الوقت من كل اتجاه وأنا وقتي محدود. »

- « الحقيقة أنك كنت رحيما بي، ربما لأنك تتعاطف مع فنان. »

- « مرة أخرى تعود إلى المداهنه! »

- « لا.. لقد تأثرت فعلا بعطفك، أتمنى فقط لو كنت قد أمهلتني أسبوعا.. كان يمكن أن أنتهى من رسم لوحتين لمنظر السيول وصورة شخصية... »

- « بورتريه كيشورى لال؟ »

- « أنت تعرف كل شيء إذن! »

قفزت سمكة ضخمة بيننا في الماء ثم انسلت برشاقة بجوار جسدي، فزعت لرؤية ثعبان من ثعابين الماء يتبعها.

سألني «ياما»: «خائف؟» كان قد سمع خوفي!

«لا تخف، لن يعض جسديك، أولا ثعابين البحر ليست مؤذية ثم إنها لاتلمس الأجساد الميتة.. ولكن لماذا أنت قلق الآن على شيء لم يعد ملكالك؟»

- «ما زال.. إنه كان ملكي...»

- «هذه عواطف غبية، أنتم معشر البشر لا تتخلون عن شيء، غيورون، محبوبون للتملك، متمركزون حول الذات.. هكذا أنتم دائما...»

- «حسن! سوف ترى حالا جسديك ملقى على الشاطئ، يمكن أن تستمر في البكاء والنحيب عليه كما شئت رغم أنك - وكما تعرف - ليس لك عيونا بشرية الآن... أتمنى أن يحضر أحد أقاربك الآن ويطلبها قبل أن تصل إليها النسور، ولا تنس أيضا أن النسور قد مرت بنفس التجربة، بعضها كان رؤساء وزارات ورؤساء دول وجنرالات في حياتهم السابقة.»

- «هذا أمر مرعب!»

- وأنا سعيد لأنك بدأت تدرك ما ينتظرك، لقد كنت زلق اللسان أكثر مما يجب..»

- «معذرة ياسيدي!»

- «وحيث يبدو أنك تعرف «الأويانيشاد»* جيدا دعني أشاركك فكرة من «كاوشيتاكي» حيث يخبر «جانيجاني»، «جاوتام» كيف أن كل روح مفارقة تعود مرة أخرى إلى الأرض على هيئة دودة أو عتة، أو سمكة أو طائر أو أسد أو خنزير برى أو حية... الخ. وربما على هيئة إنسان.... وذلك حسب أعمالها السابقة. ولهذا القرار يجب أن تنتظر كلمة الإله الأعلى، ولكن ذلك ليس عملي، فعملي هو أن أضع نهاية لكل حياة، أن أطفئ النور.... كما حدث!»

وبعد فترة صمت قال: «كما إنني أختار القاتل أيضا، قد يكون: سكتة قلبية، لدغة ثعبان، سرطان... أي شيء.. وأختار اللحظة.... هل تذكر كيف قبضت روح «المهاتما غاندي» حتى

* كلمة سنسكريتية تتألف من مقطعين Upa بمعنى قريب و ni - shad بمعنى يجلس والمراد الجلوس بالقرب من المعلم، وهي محاورات تأملية ميتافيزيقية (عددتها ١٠٨) وهي ختام الأسفار التقليدية المقدسة المعروفة بالفيدا. ويتألف كتاب الأويانيشاد من أحد عشر سفرا (يطلق على كل منها اسم أويانيشاد) بصياغة حكماء متفرقين وينظمها سياق فكري واحد وجميعها تأملات في النفس الكونية «براهمان» والنفس الإنسانية «آتمان» (المترجم).

قبل أن يبدأ تجمعه للصلاة في دلهي؟ ولكن ذلك كان شيئاً آخر. أردنا أن تكون معنا كإحدى الأرواح المباركة، وقبضت روح «كيندي» وهو في السيارة المكشوفة في شوارع «دالاس»، و«اللورد مونتباتن» وهو في اليخت بالقرب من الشاطئ الأيرلندي...

– «إذن أنت اخترت «كينيث جورج» ليكون قاتلي؟ قال «ياما» – استنتج كما يحلو لك، وبالمصادفة فإن العمل الذي كنت تمارسه يثير اهتمامي، ليست صورك الذهنية، ولكن منظر السيول... تصوير الموتى، سيكون ذلك جميلاً بلاشك... ولكن لماذا أبقى طويلاً هكذا مع إحدى الأرواح؟»

– «هل يمكن أن أعتبر ذلك إعجاباً بطني؟»

– «ها أنت مرة أخرى يصيبك الغرور، فتعطي نفسك أهمية كبيرة! تلك كانت ملاحظة عابرة، على أية حال لا بد أن أمضي، فأنا لا أستطيع أن أترك شيئاً لأعوانني...»

وفي الحال هجمت موجة على بقعة الزيت فبددتها.. عندما نظرت حولي وجدت جسدي يرتفع في الماء، وبعد أن طفا على السطح ألقت به موجة قوية على الشاطئ. رحت أتبعه كأنني ضباب، زفير، فراشة تحوم حوله.

كنت أسمع كل الأصوات على شاطئ النهر، رفرفة أجنحة النسور على أشجار جوز الهند القريبة، الأطفال وهم يلعبون، وقع حذاء الجندي على الأرض الصلبة. وفوق التل، كان طيف قاتلي «كينيث جورج» يلوح خلف صخرة كبيرة، الوجه يشيع فيه الدم والعينان مثبتتان على جسدي، وعندما حومت نحوه كانت دهشتي بالغة لأنني كنت أسمع ما يدور بفكره، كما تنقل سماعة الطبيب دقات القلب.

سمعته يفكر: «ياإلهي! لقد أخذ وقتاً طويلاً لكي يخرج من الماء ولكنه الآن ملقى على الرمل مثل الخشب الطافي على الماء... انظري يا «ماري».. كانت أفكاره تنساب... لقد فعلتها وكما كنت تودين، والآن نحن أحرار بعد أن اختفى ذلك الرجل الغريب»

وبعد دقائق قليلة رأيته يقفز من فوق الصخرة مندفعاً نحو جسدي الملقى على صدره ورأسه مدفونة في الرمال والساقان متباعدتان. وقف إلى جوار الجسد، وبعد دقائق قليلة نادى الشرطي...

– «توجد هنا جثة لفظها الماء»، التفت الشرطي ذو العمامة الحمراء وتقدم نحو الجسد وهو ينظر إليه دون إحساس ثم قال: «وماذا في ذلك؟ نرى جثثاً كل يوم، وتلك مجرد ضحية أخرى من ضحايا الفيضان..»

قال جورج: «هذا الرجل رأيته يسير بحذاء الشاطئ منذ دقائق..» ثم أضاف وهو يشير بيده

«... بينما كنت أقف هناك»

– «وهذا ماقلته أنا... مجرد ضحية أخرى من ضحايا الفيضان، فما الجديد في الأمر؟»

همهم «جورج» قائلا: «أعتقد أنك محق». قالها وهو يشعر بالسعادة لأن الجريمة اعتبرت حدثا عاديا...

ولكن عين الشرطي ارتدت نحو جسدي، نظر بدقه إلى ملابسي وبنطالي القטיפنة وقميصي الحريري وصندلي الجلد والساعة الرقمية الإلكترونية في معصمي، ثم قلب جسدي بيده اليمنى.

رأيت وجهي، كان شاحبا ومبتلا ولكنه مايزال نظرا، الرمال عالقة بشعري مثل الحشائش الرطبة بالقرب من الممشى المفروش بالحصى. طار نسر من شجرة إلى صخرة قريبة وكأنه يمني نفسه بجثة جديدة لوجبة مشبعة....

ياإلهي! هل أستطيع حتى أن أخترق ضمير الطائر الجراح وأسمع ما يفكر به...؟!

شعور غريب مروع يعتريني، لولا وجود هذين الرجلين هنا لانقض النسر ليمزق جسدي... أخذ الشرطي المحفظة من جيبتي، فتح غطاءها البلاستيكي وتناول بطاقة تحمل اسمي كانت مبهتلة ومكرمشة، وكان «جورج» يطل من خلف كتفه وهو يقرأها:

«رام كريشنا»

رئيس أكاديمية لاليت كالا للفنون

ايجلزنت

كريم جودا – حيدر أباد

في ركن من البطاقة توجد أرقام هواتف المكتب والمنزل وفي الركن الآخر عنوان الاستوديو الخاص بي.

قال الشرطي: «يبدو أنه كان شخصية مهمة، ولكن ماذا تراه كان يفعل هنا؟»

– «لا أعرف»

– «هل أطلب منك القيام بخدمة لي؟»

– «ماذا؟»

– «هل يمكن أن تتصل هاتفيا بأسرة هذا الرجل من أي مكان قريب؟ تعرف أنني هنا في

الخدمة ولا أستطيع ترك مكاني... وهذه بطاقته على أية حال...»

رد عليه جورج: «بالتأكيد»، ولكنني سمعته يقول بينه وبين نفسه «هذا الشرطي يريدني أن أقوم بواجبه نيابة عنه، ولكن ذلك لصالحى تماما وهو أمر جيد»

عندما ذهب «جورج» إلى كابينه الهاتف خلف برج الساعة القريب على شاطئ النهر، تحركت أنا أيضا... سمعته يهمس في سماعة الهاتف:

- «مرحبا يا عزيزتي، كل شيء قد تم وكما خططنا تماما... لا! كل شيء تمام هنا... أتحدث من كابينه عامة... نعم...! كنت محقة...! كان هنا يرسم اسكتشات. الآن...؟ ألا يمكن أن تنتظري بعض الوقت؟ عندما أراك سأحكى لك كل شيء... لا... لا... ولا ذرة شك. كان هناك شرطي أخذ البطاقة من محفظته.... وهو الذي طلب أن أتصل بك!

حسن! اقترح أن تستقلى سيارة أجرة وتحضري إلى هنا على وجه السرعة. لا... الضفة اليسرى لنهر موسى بالقرب من برج الساعة... بالضبط... ألا تسمعين دقات الساعة؟ يا إلهي... إنها تدق العاشرة. لا بد أن مفاتيح السيارة في محفظته ولا بد أن يكون قد تركها في مكان قريب من هنا... لا... لا بد أن يتم إحراق الجسد بسرعة. حسن! يمكن أن ينقل «رامو» الخبر لبعض الجيران. إعلان في راديو عموم الهند؟ نعم... مات غرقا... لنقل ذلك، ولنضع الجثة في غرفة المعيشة وليس في الشرفة الأمامية... أرجو... و... و...ك... نعم نعم نعم... أحبك!»

هذه الخيانة أحرقتني... كنت مثل حشرة صغيرة رفرت بجناحيها نحو اللهب دائخة عمياء فتحولت إلى رماد في لمح البصر. لم أصدق أن قاتلى يمكن أن ينفذا مخططهما بمثل هذا الإتقان.. كان حزني بليغا، لأنني كنت أعتبر «مارى» دائما إنسانة بسيطة وجديرة بالثقة رغم ما كان يحدث بيننا أحيانا من شجار. وبمجرد أن طرت مرفرفا فوق رأس «جورج» عائدا إلى الجسد، رأيت أن الشرطي كان قد فتح محفظتي ونقل منها إلى جيبه ست وراقات من فئة العشر روبيات وورقة بخمس، ثم فك ساعتى من معصمي وأخفاها في عمامته.

وعندما وصلت «مارى» بعد نصف ساعة تقريبا سلمها المحفظة الخالية ومفاتيح السيارة. كان «جورج» يحاول أن يبدو مثل عابر سبيل يرقب ما يحدث عرضا..

قال الشرطي: «نحن آسفون لهذه المأساة ياسيدتي، المتبع هو أن أكتب تقريرا عن الحادث لقيادتي... ومن الممكن أن يطلبوا تشريحا للجثة... وخلافه... ولكنني سأسمح لك بنقلها... على أية حال هذه أيام غير عادية... فيضانات وموت... وكوارث!!»

قالت «مارى» «شكرا على اهتمامك ورعايتك!»

- «عفوا ياسيدتي!»

وهنا تدخل «جورج»: «لاشك أنها صدمة عنيفة بالنسبة لك ياسيدة «كريشنا» .

- «حزنى شديد فعلا، هل أبت الذي اتصل هاتفيا؟»

- «نعم، لم أفعل سوى الواجب ياسيدتي»

- «شكرا جزيلا...»

نظرت إلى كل منهما بسرعة. قالت: «سأذهب للبحث عن السيارة التي لابد ن تكون في مكان قريب من هنا وأحضرها إلى الضفة اليسرى للنهر. هل يمكن أن تساعدني في تحميل الجثة؟»

وفجأة.. كانت تجر جسيدي ولأدرك فجأة أيضا، أنها كانت تتعامل معه كما تتعامل مع جثة كلب... وبعد أن انصرفت كان الجندي يصبح نحو الأولاد الذين يلعبون على الشاطئ

- «هيا...أياديكم معنا!!»

جاء الأولاد مسرعين، نظروا إلى الجسد الملقى على الأرض بإهمال، لم يبد أي منهم تعاطفا، فقد كانوا معتادين على مشاهدة الجثث على الشاطئ..

في دقائق، كانت «مارى» قد جاءت بالسيارة، حملوا الجسد ووضعوه على المقعد الخلفي في سيارتي الأمياسادور الخضراء، كانت الساقان محشورتان بالباب من الداخل...

سألها «جورج» «هل ترغبين أن أجيء معك ياسيدتي؟»

- «سيكون ذلك كرما منك بكل تأكيد، فأنا ليس لي أحد هنا»

وقال الشرطي: «لقد ساعدنا كثيرا بالفعل!»

السيارة تعبر الآن جسر «شادرجات» منعطفة عند فندق «أوبروى» إلى شارع ضيق، ثم تتجه مسرعة نحو كريم جودا. مرت دقائق وهما صامتان تماما... بعد ذلك رأيته يميل عليها، ويبحث بفمه عن شفيتها.

- «ليس هنا يا حبيبي»

- «ولم لا؟»

- «خطر»..... قالتها وهي تنظر إلى جسيدي في مرآة الرؤية الخلفية.

- «نفس الإحساس بالخوف وكأنه مازال يراقبنا...» قال مازحا: «ليس هو... بل هي....»

«خشب جاف في انتظار النار»

- «ليس بعد! أشعر بشيء يطن من حولي»

- «إنها أعصابك المضطربة ياسيديتي، قبلة واحدة يمكن أن تنسيك ذلك كله»، وجذبها «چورچ» إليه بقوة ليزرع قبلة على شفتيها الشاحبتين المرتجفتين. وعندما انزلت يدها اليسرى من على عجلة القيادة انحرفت السيارة ليقع جسدي من على المقعد إلى أرضية السيارة ولكنها استطاعت أن تستعيد السيطرة على عجلة القيادة في الحال...

- «حبيبي.. أرجوك!. كدت أن أصطدم بعمود الإنارة!»

- «آسف يا حبيبيتي..»

ثم فترة صمت أخرى.. السيارة تجري الآن فوق «جسر ريدي»، عينا «ماري» مثبتتان على جسدي كما أراهما في المرأة.. وفجأة سألته: «كيف فعلتها؟»

قال: «مرة أخرى تفكرين في الرجل الميت!»، ثم أضاف وهو يداعب كتفها: «لماذا لا تطرده من عقلك؟»

- «ليتنى أستطيع!»

- «حسن! دفعة بسيطة من فوق التل وسرعان ما هوى المصور العظيم في النهر مثل كتلة من الخشب.... ولكن... يا إلهي! كم كان يصارع الأمواج بقوة! وكيف ظل يغوص ويطفو عدة مرات في الماء قبل أن يستقر في الأعماق!!»

- ٥ -

ظل الجو حارا شديداً الرطوبة. نتف قليلة من السحب الخفيفة كالزغب تغطي الشمس البيضاء.. وبعد فترة قصيرة انشقت السماء عن سحب لها لون التركواز. السكون يطغى على السديم الأسمر المحمر الذي يميز منتصف الصيف، وكأن الرياح الموسمية قد استنفدت كل قوتها... رحت أسائل نفسي: كم ترى يكون عدد المشيعين الذين يمكن أن يحضروا بعد ظهيرة يوم السبت؟ إن نهاية الأسبوع ليست وقتاً ملائماً للموت، فالناس لديهم أشغال أكثر أهميه من حضور جنازة!

هاهو جسدي ملقى على الأرضية الخشبية في غرفة المعيشة، ولكن أين ذهب القتلة؟ عندما كنت أرفرف حول المنزل شاهدتهم في الغرفة التي استخدمها مرسما. «جورج» و«مارى» يقفان بالقرب من كومة قماش لوحات قديمة مكدسة في أحد الأركان. قال وهو يتأمل بعضها:

- «هل تعرفين أحداً من الموديلات العاريات؟»

- «لا»

- «هل حاولت ذات يوم أن تعرفي؟»

- «كنت أرسل «رامو» إلى الاستوديو الخاص به في وسط المدينة... ولكن للأسف...»

وبعد أن توقفنا عن الكلام فترة قصيرة، عاد يسألها:

- «هل سبق أن رسمك عارية؟»

قالت - «لا أتذكر»

ولكنها كانت تكذب، كانت «مارى» موضوعاً لواحدة من أجمل لوحاتي العارية. عندما حاول «جورج» أن يطوق خصرها بذراعه، انسلت من بين يديه..

- «ألا ترى أنه مايزال في المنزل..»

- «عدنا مرة أخرى لتلف الأعصاب!»

قالت :- «دعنا نخرج إلى غرفة المعيشة... فالمشييعون على وشك الوصول...»

وخرجنا بينما كان يهز كتفيه...

كان أول من حضر للعزاء جيراننا «جويال» و«سارلا مينون». قال «جويال» وعيناه على جسدي بينما كانت «سارلا» تنظر إلى وجه «مارى» بشفقة: «صدمة شديدة لنا!»

ردت «مارى» وهي تفتعل الحزن: «هذه إرادة الله... وكانت نحاول أن تستحضر بعض الدموع لعينيها العاديتين... تقدمت «سارلا» وأمسكت يديها، «لاتبك يا عزيزتي، وتألمي ما حدث لنا أيضا...»

يبدو أن موتي قد أحيا كل الذكريات الأليمة عن ابنيهما «أمارناث». ارتعشت شفتنا «جويال» وتدلّى رأسه، وكنت اسمعه يبكى إلى الداخل وهو يردد:

- «أي عدل هذا يا إلهي، لم أكد أنسى ابني بعد. إنني أراه كل ليلة وجسده يحترق وسط النار، يذوب فوق الحرقعة جزءا جزءا... والآن هاهو جار عزيز يرحل... لماذا نعجز عن فهم هذا اللغز... الموت؟»

فجأة صرخت «مارى»: «بيتر.. اخرج من هنا!»

دوت صرختها المفاجئة في فكر «جويال» فقال لنفسه: «أي امرأة تلك؟!»، ولكن «بيتر» ظل في مكانه يلعب بالقرب من جسدي غير عابئ بغضب وصراخ «مارى»، كان يتشمم جسدي من الرأس إلى القدم، بدا مرتبكا ثم انكمش على نفسه في ركن بعيد واضعا خطمه بين قدميه الصغيرتين... سمعته يفكر: «قضى صاحبي! نحن على خلاف أولئك البشر يمكننا أن نتشمم الموت. ماهكذا اعتاد سيدى أن ينام على الأرض العارية باردا لاحتكاك فيه... ليلة الأمس فقط زحفت تحت أريكته عندما عاد من الخارج متأخرا بعض الشيء، كان يتنفس بصعوبة طوال الوقت وكنت أشعر أن هناك ما يقلقه.»

«كم أكره هذه السيدة! انظر كيف صرخت فيّ، إنها يمكن أن تضربني... لا يهم... سأبقى هنا.. أريد أن أكون قريبا منه.»

لو كان للأرواح أن تبكى لانفجرت في البكاء. لو كان للأرواح أن تلمس لتركت أصابعي تمسّد جسده المخملى وأذنيه الطريتين، لو كنت أعرف أن موتى سيمزقه هكذا لأورثته كل شيء، ولكن احتياجات الكلاب محدودة، ليست أكثر من وعاء من اللبن وقطعة خبز وبعض اللحم وحب سيده، ولكن يا «بيتر» كيف كان لي أن أعرف أنني سوف ألقى منهم هذه المعاملة المهينة؟! كنت مثل غيرى من البشر أتمنى أن أعيش إلى الثمانين مثلا! هل تذكر الجزار الذي

اعتدت أن أشتري لك منه اللحم المفروم؟ ألم يعمر حتى الرابعة والثمانين؟ ألم يكن سليما وبكامل صحته حتى اللحظة الأخيرة؟ ألا يتخيل البشر أنفسهم خالدين أبدا؟!

«اخرج من هنا»

وأسرفت نحو الركن الذي انطوى فيه «بيتر» على نفسه وبدأت تجذبه من طوقه. زمجر وكنت أسمعه يقول لنفسه: «لماذا تتقصديني؟» «كم أكرهها» .. «أعرف أنها سوف تطردني من المنزل»

وبينما كانت «مارى» تجذبه عبر الباب تدخل «جويال» :

- «ربما كان هو أيضا في حالة حداد، اتركه هنا من فضلك»

- «أتركُ قلبا بالقب من جسد ميت؟»

- «ولكنه ليس أي كلب ياسيديتي. أنت تعرفين كم كان «كريشنا» يحبه، ولم يحدث أن حضر إلى منزلنا أبدا بدونه»

تركته «مارى، فمضى «بيتر» خافضا رأسه.

قال «ست كيشورى لال» وهو يدخل: «شء فظيع، لقد سمعت الخبر لتوى في راديو عموم الهند، كان ذلك تقديرا وتكريما لفنه. لاشك أن موته خسارة كبيرة لولايتنا.. للهند كلها» هل تعرف السيدة «كريشنا» أنه كان يرسم «بورترية» لي؟... أنا «كيشورى لال» من مصانع «جانيش» للنسيج.

- «نعم ... سمعت عنك»

وبدأ «كيشورى» يقول لنفسه: «كان لابد أن يموت بعد أن ينتهى من ذلك! المجرم... مات وصورتي على وشك الانتهاء... ولكن هل تعرف تلك المرأة ياترى أنه قبض مني خمسة آلاف روبية ثمنا لذلك العمل الذي قضى دون أن يكمله؟! ألا يجب أن تطلب من مصور آخر أن يكمله.. أو على الأقل تعيد إليّ مقدم الثمن الذي دفعته لزوجها؟»

لم أكن أتصور أن يكون «كيشورى لال» حقيقيا إلى هذه الدرجة حتى في يوم إحراق جسدي. بالنسبة لمقدم الثمن فكان الآن مسألة بينه وبين «مارى» .. ولكن هناك «چورچ» أيضا.. ألن يحتاج بعض المال من أجل شهر العسل؟!

كان ثاني المعزين الذين حضروا هو «نافثيت ديشپاندى»، وبعد عبارات المواساة التقليدية التي يحفظها جيدا، جلس هادئا في أحد الأركان وراح يراقب سمكة تتراقص في الحوض أمامه.

سمعته مستغرقا في التفكير في ترقيته الوشيكة. «سيشعر كل موظف في إدارتي بقوة قبضتي.. سأجعلهم يعرفون معني العمل وسيكون ذلك هو أسلوبني لكي أثبت نفسي رئيسا للأكاديمية. وعندما كانت «مارى» تمر من أمامه لكي تفتح النافذة خلف حوض السمك وقعت عيناه على ساقها... «هل يمكن أن يحدد المرء عمر المرأة من شكل ريلة ساقها؟» كان ذهن «ديشپاندي» الآن قد اتخذ وجهة أخرى «لماذا ينظر المرء إلى وجه المرأة فقط؟ إن كل عضو في جسدها يحمل بصمة عمرها.. ألم تكن تلك المرأة صغيرة بالنسبة لرجل في الأربعين؟» .. «لست أدري لم تستر المرأة الهندوسية الأجزاء السفلية من جسدها، تغطيها بالتنورة أولا.. ثم بالسارى.. إن ذلك يذكرني بالساحر الذي يخفي بيضة دجاجة في صندوق صغير داخل عدة صناديق تتدرج في حجمها أكبر فأكبر.. يظل يفتحها واحدا تلو الآخر أمام دهشة المشاهدين وتشوقهم...

ألا يشبه ذلك السارى المتأهة... اللغز...؟ أنا أفضل التنورة فقط، وفي أي وقت، بسبب سهولة الوصول.. المغوى!.. وهذا ما تتفوق فيه المسيحيات على نساينا. التنورة تدعو العين لاستكشاف الجسد.. من القدمين حتى الركبتين.. بعد ذلك ينطلق عنان الخيال.. إذا كانت هناك قوة دافعة كافية فأنت واصل لامحالة إلى النبعين الطريين اللذين يحملان حليب العاطفة والرغبة. أراهن أن هذه المرأة سوف تشعر قريبا بطعنة الوحدة، وستبدأ ريلتا ساقها المحكمتان في الارتخاء والضعف.. ستنام بمفردها ليلة بعد ليلة وليس هناك من يدلك لها ذلك الجسد الشهوي المشتتهي! سأكون على استعداد لمساعدتها! وعندما كانت عائدة بعد أن فتحت النافذة قال لها:

- «أرجوك ياسيديتي، دعيني أعرف إن كنت أستطيع أن أقدم لك شيئا، أن أكون معينا لك في أي أمر... مهما كان...»

- «بالتأكيد ياسيد «ديشپاندي»، السيد «جويال» هناك يشرف على تثبيت المحفة.. ولكن إذا كان هناك أي شيء آخر....»

- «أي شيء، أي خدمة ياسيدة «كريشنا»

- «شكرا... سوف أخبرك بالتأكد»

ثم خرجت من الغرفة.. بعد ذلك راح «ديشپاندي» يفتش في جيبه الأيمن عن علبة سجائره...

«من أسف أنه لايمكن التدخين هنا، ولكنه بعد قليل سوف يحترق بكامله في المحرقة مطلقا الكثير من الدخان، كم هو أمر مضحك!

وأنت طالب لايسمحون لك بالتدخين في غرفة الدرس، ولا في دورات المياه، ولا في السينما، ولا في المعبد، وكلها قيود بغیضة... ربما كان بإمكانني الخروج من هنا لجذب نفس أو نفسين..

كنت أتبعه خارجا، فرأيت الشمس تبدأ رحلة المغيب... لا بد أننا بعد الظهر الآن.. تساءلت بيني وبين نفسي عن موعد وصول والديّ من «نظام أباد» لكي ننتهي من عملية الإحراق المزعجة. في الفناء الخلفي بالقرب من مرآب السيارة رأيت «جوس» (متى جاء؟) يساعد «جويال» في تثبيت المحفة لكي يحملوا جسدي عليها إلى المحرقة. كانوا قد شبكوا بعض أعواد البامبو المتساوية في الطول - طولى - وكان «جوس» يقول لنفسه: «لم يكن مجرد سيدى، بل كان صديقا، لم يلفظ كلمة قاسية واحدة... وماذا لو كان ضعيفا أمام النساء بعض الشيء؟ ألم تنجذبن نحوه الجذاب برادة الحديد للمغناطيس؟»

«كنت أعرف عندما يطلب مني دائما أن أبحث عن «رامو» ذلك الجاسوس... ولكننا لم ندعه أبدا يقترب من الاستوديو.. لماذا يتبعون دائما الرجل الذي ينشد بعض المتعة في الحياة؟ ماذا لو أنني لم أسمع الخبر في راديو عموم الهند! أعرف أن السيدة سوف تستغني عني بعد يوم أو يومين فهي لم تحبني أبدا.. والآن لم تعد لي فائدة بالنسبة لها..! قضى الأمر! ربما فكرت في أن تبيع الاستوديو لشخص ما وستكون تلك هي النهاية.»

تمنيت لو أنني أستطيع أن أواسى «جوس» الذي هزني لإخلاصه ووفائه.

عندما دخلت السيدة «دويشوارى بانرجى» يتبعها زوجها السمين، عرفت أنهما سوف يكملان تصفيتي..! إذا كان «ديشباندي» يريد أن يستولي على منصبي، فإن هذين الشخصين يودان شراء مقتنياتي الأجنبية. منذ أيام قليلة كانت تريد أن تشتري ساعتى الإلكترونية (آه لو علمت أنها قد سُرقت!)، وكان زوجها الذي يتفجر غرورا بثروته السوداء يقول باستمرار: لا أستطيع أن أرفض طلبا لعروسى! رغم أنها كانت في الرابعة والأربعين وهو قد تخطى الخمسين.

أنبت نفسي على الانغماس في أفكار لاتليق في يوم جنازتي قال «دويشوارى مخاطبا «مارى» وهي تسحب طرف السارى على رأسها احتراماً للروح المفارقة :

«كان للخبر وقع الصاعقة علينا..»

وتدخل زوجها :

«صدمة لنا جميعا في الحقيقة..»

أشارت «مارى» برأسها لهما لكي ينضما للآخرين في غرفة المعيشة، ولكنهما خرجا بعد قليل ليجلسا على مقعدي الذي كنت أجلس عليه دائما في الحديقة تحت شجرة المغنوليا. ربما كانا يودان الانفراد بنفسيهما لتحديد الأشياء التي يريدان شراءها بعد أن ذهبت. هناك غسالة ملابس فرنسية وتلفزيون انجليزي ملون وساعة حائط سويسرية.

توارت الشمس في السماء ولا أثر بعد لوالدى. ترى هل تعطلت بهما السيارة الأجرة أو

حدث لهما مكروه؟! أشعر كأنني مريض في حجرة الطوارئ أعد نفسه لعملية جراحية كبيرة ويريد أن ينتهي منها على وجه السرعة، وفي نفس الوقت كان المعزون يتوافدون مثلما يتوافد المدعوون على حفل عام، ثم.. ياإلهي! مفاجأة... مذهلة! لماذا جاءت «پراتيما» إلى منزلي؟ إنها آخر من كنت أتوقع أن أراه هنا... ألا يثير وجودها الشك لدى «ماري»؟ من المؤكد أنها ستظنها واحدة من عشيقاتي أو موديلاتي! وإلا ما الذي يجعل سيدة جميلة في الثامنة عشرة من عمرها تظهر في جنازتي؟ لابد أنها سوف تلفت الأنظار إليها وسط هذا التجمع بكل ذلك الجمال الساحر! «ديشباندي» وغيره.. ليتها جاءت مع زوجها الصغير.. حفاظا على المظهر فقط.. ولكنها دخلت مرتدية الساري الذي كانت ترتديه في الحفل إياه! سمعتها وهي تجلس بجوار جسدي بهدوء وهي تفكر:

- «ها هو مسجى... بعد أن ضاعت كل العواطف المشبوبة. هذا هو الرجل الذي أتى لي بالقمر وجعله ملك يميني ليلة كاملة... كنت أعرف أنه يعتبرني فتاة صغيرة السن نحاول اصطياد فنان شهير..

مازلت على حبي لك..! لو أنك فقط حاولت أن تقبلني! ولو قبله واحدة في ذلك المساء.. ولكن ليس على خدى كما فعلت بطريقة أبوية.... كنت أريدها قبله كاملة على فمي.. في فمي.. حتى أستطيع أن أشربها عميقا.. وطويلا...»

«رأيت في عينيك الشعور بالذنب، هل كان هو الفارق بين عمري؟ التاسعة عشرة في مواجهة الأربعين.. ولكن من يهتم بذلك؟ لقد قرأت مرة في مجلة أمريكية عن روائي في السبعين تزوج من فتاة في التاسعة عشرة، وأنا سأبلغ العشرين في الربيع القادم!

لقد مضيت بعد أن حركت مشاعري متصورا أنه ليس أكثر من «حب أطفال»... حسن!.. أنا هنا يا حبيبي لكي أريك أنه لم يكن كذلك»

كان ذلك كله يأتيني على شكل رؤى، والآن أدرك أنها لم تكن مجرد فتنة مساء مثير! لو أنني أستطيع أن أشرح لها؟ ليتك تستطيعي أن تسمعي أفكاري أنا أيضا يا «پراتيما»! حينئذ ستعرفين أنني لم أكن على استعداد لمواجهة ما حدث في ذلك المساء - على الأقل مقابلة إنسان مثلك.

أولا.. ما كان لواحد في مثل موضعي أن يذهب إلى نادي الرسامين الشبان وهو يعرف أن هناك حفلات كوكتيل وحشيش وأنهم جميعا تحت الثلاثين. ثم إنني وجدت نفسي الرجل الوحيد هناك دون شريك نسائي.. ففكرت في إغواء واحدة من أجل ذلك المساء، واخترتك فريستي.. كنت الأصغر والأجمل... قررت أن استولي عليك من زوجك الشاب. شربت كأسين من الويسكي ثم طلبت بعض الحشيش... وبعدها وصلت! وعندما بدأ وجهك يضوى مثل

مشكاة في زجاجة، انفكت عقدة لساني وانطلقت في الكلام عن نظرياتي المفضلة في الفن والجمال. كنت أنت حافزي المباشر. وأنا، متشبثاً بوجهك، أتكلم عن جمال المرأة كانتصار نهائي لله. ألم يكن القبح خطيئة؟! نوعاً من التشوه الأخلاقي؟! إن الله نفسه لا بد أن يكون قد وقع في غرام حواء بعد أن خلقها... هل هو نوع من سفاح القربي المقدس؟! عند هذا الحد أدركت أنني قد خلعتك من قدميك، وعندما تركت عيني تتهاديان على صفحة وجهك كنتجلاً آخر من تجليات القوة المقدسة، احمر وجهك خفراً. رأيتك تذويبن. «كم من البشر يستطيع أن يفكر بمثل هذا الجمال»، عندما نطقت بتلك الكلمات نظرت إلى ثغرك.. انفرجت شفتاك تويجات زهرة... عرفت أنني قد لمست قلبك... ولكن... يا إلهي! كم زيفت كل شيء! كل تلك الكلمات الكبرى عن الإبداع والجمال والقبح... والحقيقة إنني طوال الوقت كنت أسبر أغوار جسدك.. عرفت أيضاً أنني قد حملت حملاً ثقيلاً لا أقوى على المضى به.. فكيف يمكن أن أقبلك من فمك.. في فمك..؟! لا! كان لا بد أن تكون قبلة عجلي على خدك الأيسر...

ولكنك قلت: ولماذا يكون شخصاً موهوباً مثلك حكراً على امرأة واحدة! لا بد من وجود قانون ضد هذا الاحتكار... أرجوك يا «پراثيما»... ابتعدي!

كان بودي أن أهرس في أذنها... «احذري «ديشباندي»... لقد بدأ يحدق فيك!»

نبتهج نحن بنى البشر كثيرا بفكرة خلود الروح. جميع الأديان تقريبا تؤكد بقاءها بعد فناء الجسد، ولكنني أستطيع أن أقول أن خلود الروح يمكن أن يكون لعنة حقيقية، بلاء، طائرا في عنق الإنسان. ألا ليت الفرد منا ينتهي تماما بالموت.. جسدا وروحا. ليته ينتزع مثل النبات جذرا وساقا ويلقى به في سلة المهملات. إن سعادته الحقيقية لن تكون إلا بعد تحرره من وعيه تماما بعد الموت. يقولون أن قلب السلحفاة يظل يخفق عدة ساعات بعد موتها، ولكنه يدخل بعد ذلك إلى عالم النسيان التام... أما الإنسان فلا! إن بقاء روح الإنسان بعد الموت يشبه عذاب جندي جريح في خندق، أصابته شظية وراح يذوى دون أن تلوح لعذابه نهاية. وكأن كل ذلك العذاب لا يكفي! يولد الإنسان مرة أخرى ليمر بدورة ثانية من الألم والموت والوحدة والخيانة... لماذا لا تمنحه يارب خلوده الأبدى الذي يستحق.. الفناء التام لجسده؟ اجعل الروح يارب تختفي مع الجسد، دعها تفقد الذاكرة.. والقدرة على السمع والبصر..

عندما وصل والدائي عرفت أنني سأعبر محنة الموت مرة أخرى. سأمر برحيل ثان. دخلت أُمِّي غرفة المعيشة، وقفت متجمدة أمام جسدي ثم تهاوت على الأرض.

«كيف تبقى أم على قيد الحياة بعد ذهاب جزء من جسدها» ظلت تولول كأنها تردد لازمة في ترنيمة جنازية. بعدها استدارت نحو المعزين وهي تقول: «أرجوكم... اتركوني مع ابني قليلا.. إنه في حاجة إلى حمام قبل أن يرحل» ثم انخرطت في البكاء ثانية. وهنا تدخل أبي: «ولم لا تتركيني أغسله؟»

- بل «سأقوم أنا بذلك!»

كانت «سارلا مينون» تقف بجوارها فاقتربت عارضة أن تناولها دلو الماء.. نظرت أُمِّي إلى «ماري» وقالت: «وبعض العطر أيضا.. نعم سيكون نظيفا معطرا كالعريس...» ثم انفجرت في البكاء مجددا..

قلت لنفسني: «آه يأمي! لماذا تمزقين نفسك هكذا؟ تبكين فوق كتلة من اللحم... ليس ذلك سوى جسدي بينما الشيء الحقيقي يرفرف حولك ويسمع ما يدور بفكرك... هذا هو جوهرى الحقيقي، تماسكي يأمي... لماذا تخليت عن الجيتا؟ لماذا لا تسلمى أمرك للإله

«كريشنا؟ ماذا عن نصيحة الإله بأن الغافلين فقط هم الذين سيكون وفاة الجسد؟»

«لا تدعي الموت يهزمك هكذا! اهدئي نفسك... ولو من أجل سلام روحي! أليس ذلك ما يبتغيه المعززون من صلاتهم لـ «شانت» عند مغادرة الروح؟»

وحيث كان الجميع قد غادروا الغرفة الآن، خلعت أمي عن جسدي ماعليه من لباس، ولدهشتي هاهي تتوقف عن البكاء. حدثت في وجهي ذاهلة زائغة البصر، فشعرت بالخوف خشية أن تكون الصدمة قد أفقدتها عقلها..

«هكذا كنت تبدو يا «رامي» وأنت في الثامنة من العمر عندما كنت تخرج من غرفتك في الطابق الثاني كل صباح وتطلب مني أن أحملك، تتكئ على حاجز السلم وتنادي «أنا جاهز يا أمي» وأنا أهدق في الزهرة الصغيرة بين فخذيك وأنت واقف هناك وردى الخدين مثل ملاك ريان... ياملاكي الصغير، كنت أشكر الله لأنه أعطانني ابنا، «نعم يا «رامي».. سأكون معك بعد لحظات.. مازالت آثار العجين على يدي».. ثم أغسلهما بسرعة، أغلق الموقد وإناء الشاي يغلي من فوقه أو الأومليت تتر في المقلاة..»

أشعر كأنني أرد عليها: «نعم يا أمي، أتذكر كل ذلك، كنا نلعب بينما الوالد يمارس تراتيله في غرفة الصلاة.. لا.. لم يعتريني أي إحساس بالخجل وأنت تحميميني وتحكين ظهري وترطبيني «زهرتي الصغيرة» ببودرة التلك ثم ترشين جسمي كله بكولونيا «أفون»... هل تعرفين يا أمي أنك علمتني - رغم أن ذلك لم يكن عن عمد - كيف أتعامل مع الجسد العاري ببهجة؟

آه يا أمي! ليتني استطعت أن أشاركك سرا وأنا على قيد الحياة! كانت مواجهة طفولي مع العري! هل تذكرين جارتنا الصغيرة «زينات»؟ ذات صباح صيفي، كنت ألعب «الاستغماية» مع بعض الأولاد في غرفة السطح، وعندما اختبأت خلف إحدى الخزائن ونظرت متلصصا من خلال ستارة الشباك التقطتها عيني وهي تستحم.. ورغم أنها كانت تستر نفسها خلف بعض قطع الغسيل المنشورة على الجبل إلا إنني كنت أرى جسمها من بين رجلي بنطال يقطر منهما الماء.

انحنيت تحت يد المضخة تاركة شعرها الأسود الفاحم الطويل ينسدل غزيرا على كتفيها، استدارت وانثنت تحت الماء. كانت تدير يد المضخة بإحدى يديها وهي تحاول أن تكون قريبة من الفتحة التي يتدفق منها الماء. وعندما تحركت تفجر جسدها كله أمام ناظري. رأيت وجهها المغمور بالماء يفتتح مثل زهرة عباد الشمس صباح يوم ربيعي رائق، ولأن شعرها كان منسدلا خلف رقبتها حتى الفخذين كان صدرها عار والقبتان المبتلتان تلمعان في ضوء الشمس الدافئ. ودون أن تنهض على قدميها جذبت منشفة من على الجبل، جففت بطنها وخط الخصر والفخذين والساقين، ثم لفت نفسها في الساري وقامت. وعندما جاءتك في الصباح التالي تطلب

بعض السكر كنت أشعر بالحرج، كانت ترتدي ساري بألوان قوس قزح وبلوزة فاتحة اللون، واحمر وجهي خجلا عندما رأيته متدثرة بعريها. وفي منتصف حديثكما معا نادتنني إليها، قالت إنني طفل جميل وجذبتني إلى حجرها... يا إلهي! كنت استنشق عبق جسدها الطازج!

«ألم تنته بعد؟» قطع أبي استغراقي الحالم بهذه العبارة وهو يخاطب أمي، التي ردت قائلة:

— «بلا... إنه الآن جاهز.»

عندما وضع «جوس» جسدي الملفوف بكفن الحرير الأبيض على المحفة وأحكم رباطه من الرأس حتى القدم، استحال لون وجه أبي إلى الأسود، رأيت عروق رقبته تنتفخ.. وعيني تلمعان بالدموع ويديه ترتعشان... كان على وشك أن يغشى عليه بينما تقتضي رجولته أن يتماسك وتمنعه من أن يجهر بما يكشف عذابه. كان يتمتم لنفسه وهو يحرق في الفضاء من حوله: كيف أصلي من أجلك يا بني؟ لم يكن الآن يفكر في جسدي، نظر أعلاه مرتين، ونظر حوله، كأنه يعرف أنني روح ابنه التي لا بد وأنها ترفرف من حوله وتحدث ذلك الطنين... سمعته يفكر في كل آيات المواساة، «الجيتا»^(١)، «الأوينشاد»، و«الدهاما پادا»^(٢) البوذية.. كان أبي يتأرجح فوق الخط الفاصل بين الهندوسية والبودية.

وبدا في المناجاة: يا إلهي! ليتك تساعدني على أن آخذ مكان ابني على المحفة، ليت ينهض من فوقها حيا.. ثم راح يتلو بعض الأدعية:

«فليسدد خطاك يا بني الإله فايروشاما

ولتكن الأم المقدسة للفضاء اللانهائي رفيق طريقك

ولتتم بسلام من طريق باردو»^(٣) الخفيف

ولتحل بك البركة القصوى.»

أردت أن أذكره: «ولكن هذه الصلاة وهذه الأدعية يا أبي من «كتاب الموتى» التبتية، ذلك الكتاب الذي طلبت مني ذات يوم أن أقرأه لأرى كيف أن «الجيتا» أفضل من ذلك الكتاب البوذي فكيف تكون هذه الردة الآن؟ أم تراك تريدني أن أنخطئ كل العقبات التي يمكن أن

(١) أنشودة العظيم التي توضح طبيعة الإنسان والكون وهي جزء من المهاباراتا.

(٢) كتاب يضم مجموعة من الحكم التي تصور النسق الأخلاقي من المنظور البوذي. وهي كلمة سنسكريتية وتعني في الهندوسية القانون الأخلاقي وفي البوذية الحقيقة الكاملة. «دهاما» معناها الورع أو العيش الفاضل و«پادا» معناها الطريق أو القوة أو الأساس. (المترجم).

(٣) الطريق التي تمر بها الروح بعد الموت وقبل إعادة الميلاد (المترجم).

أواجهها في العالم الآخر؟ حتى «الباردو»؟ ولكن هل كان الإله «كريشنا» يدرك هذا الشيء كفضاء لانهائي؟ «الكارما» فقط يا أبي هي التي ستحدد مستقبلتي وهذا ما أعرف أنني قد فشلت فيه... لم أستطع أبدا أن أهزم الـ«مه» والـ«كاما».. الرغبة والجنس!

هل تذكر كيف أصابك الفزع عندما اكتشفت رسالة غرامية من «شيللا» مخبأة في كتاب التاريخ لدى؟ «الجنس وأنت في السادسة عشرة؟».. صرخت في بحة.. ثم طلبت مني أن أذهب لمقابلة كاهن في معبد «آريا ساماج» كما لو كنت في حاجة إلى عملية جراحية عاجلة. ولكن ذلك لم يفلح أبدا يا أبي لأن الرجل نفّرني منه تماما. كان حليق الرأس إلا من خصلة شعر وحيدة معلقة في منتصف رأسه، يقعى على سريره المعدني في مئزر أصفر يميل إلى البرتقالي، عار حتى الخصر مثل الغوريلا، مرتان... وبينما هو يتحرك متثاقلا على عجيزته ظهرت خصيتاه. كرتان صغيرتان مفرغتان من الهواء كأنهما ورم غير حميد. وفي الحال دفعهما تحت مئزره عندما نحني أنظر إليهما وظل يرتل من مخطوطة في يده اليمنى...

تذكر

عندما يتغضن جسد امرأة
في قلب الوجود
يتدفق السواد في الأوراق،
هذا هو الجرح
الذي يتخلى عن العشب
تحدق الشمس مستسلمة
حتى نهبط نحن إلى عالم النسيان.
السيطرة على النفس
هي القوة
التي نحافظ على خيمة سيرك السماء
منصوبة فوق رؤوس البشر

وبالرغم من أن معظم ماقرأ كان فوق إدراكي، إلا إنني فهمت الرسالة. وبعد أن نظف أنفه سلمني المخطوطة.. «هذا هو طلسمك ياطفلي العزيز، التخلي هو مفتاح الصحة العقلية والترفانا* ولكنني، بينما كان يتمم، رأيت على قاعدة شياكه زوجا من العصافير أحدهما فوق الآخر. كان ريشهما يهتز وهما يهدلان بعبارة معناها «لاشيء يهم!». هل تعلم يا أبي أن كاهنك هذا هو الذي أرسلني عائدا إلى «شيللا»؟ وفي نفس المساء كنا نمارس الجنس في أحد بساتين المانجو مع نفس الهديل «لاشيء يهم!» فإذا كان ذلك هو ما زرعت في الـ«كارما» فأني مغفرة أبتغي من

* الاتحاد مع روح العالم وهي المتعة القصوى والسعادة النهائية (المترجم).

الله ؟ لقد انتهيت يا أبى.... إلا إذا استجاب لدعائك لأن حياتك أنت كانت نظيفة.. ولو أثمرت صلواتك حقاً فأني أريدك أن تطلب لي أن أولد مرة أخرى على هيئة فنان. كلانا كما ترى مؤمن حقاً بقدرة الإله الأعظم. الفارق الوحيد هو أنك تدرك وجوده في كل شيء، حيا كان أو غير حي. بينما أدركه أنا في الجسد الإنساني».

انقطع تيار أفكارى عندما رأيت «جوس» و«جويال مينون» يحملان محفتي إلى خارج غرفة المعيشة عبر الشرفة الأمامية إلى الرواق حيث وضعوها على الأرض.

في هذه اللحظة بالضبط دخل «بقشيش» وعلامات التوتر والشحوب بادية على وجهه. من المؤكد أنه ما كان ليتركهم يطرحوني أرضاً.. ولكن لماذا هذا التأخير؟ كان لابد أن يحضر قبل ذلك ليواسى والدى الذي لا يعرف أحداً من الحاضرين هنا باستثناء عائلة مينون.

اقترب «بقشيش» من والدى وهو يقول له كيف أنه علم بالخبر من الراديو بينما كان يحضر حفل زواج موظف مسلم يعمل لديه بالمكتب. ثم كيف تأخر بسبب أعمال العنف الطائفي. شعرت وكأنني أريد أن أقول له: «كان عليك إذن أن تبقى هناك يا «بقشيش» حتى تسيطر الشرطة على الموقف... ربما كانت أعمال العنف مازال مستمرة إلى الآن. ماكان عليك أن تغامر بالخروج من تلك الممعة وبخاصة عندما يكون رأسك الممعم هدفاً أولياً. كان من الممكن أن يشعلوا النار بسيارتك وأنت بداخلها ويعتبرونها عملية إحراق لواحد من طائفة السيخ وهو حي، وربما تكون أحداث الشغب هي التي عطلت «ريزيا» أيضاً، هذا إن كانت قد عرفت بالخبر.

ثم تقدمت «دوبشوارى بنجارى» متثاقلة نحو الحفة يتبعها زوجها وسألت أبى: «والآن كيف سيكون التصرف؟ لقد سمعنا أن منطقة «پائيرجاني» كلها مشتتة. هناك أعمال عنف وتخريب ومذابح وشغب واغتصاب بين المسلمين والهندوس. مئات الجثث ملقاة في الشوارع من جامع «مكة» حتى معبد «شيفا»، وكل الطرق المؤدية إلى المحرقة مغلقة... الفوضى عامة في كل مكان!» كان وجهها يلمع بالبهجة أكثر منه بالقلق وهي ترسم تلك الصورة المفزعة. سمعتها تقول لنفسها: «كم هو مثير أن يكونوا جميعاً في مثل هذا الموقف المريع!»

وتدخل «جوس»: «هناك طريق آخر ياسيدي، وهو آمن كذلك... أن نلتف حول سوراج جودا» خطر لي الآن أن «جوس» هو المسلم الوحيد بين المشيعين وأنه لم يكن خائفاً، كان هناك بالطبع شخص آخر مسيحي في منزلي، وربما كان مايزال يتأمل الصور العارية في الاستوديو.

قال أبى: «فكرة لابأس بها، يمكن أن نمضي بسهولة على امتداد تلة عثمان عبر سوق الخضراوات المركزية». مجرد ذكر ذلك التل كان صدمة لي. آه لو عرف والدى ما واجهته أنا و«ريزيا» ذات مرة هناك!

وعندما كان المشهد المحزن يبدأ في الانقشاع دخل «كيشورى لال» «هل تريدون أن أبعث برسالة إلى المحرقة للاحتفاظ بدورنا في الحجز؟»، كان في صوته رنة من يصدر الأوامر..

«أنا أعرف كبير الكهنة هناك، سيكون الزحام شديدا لكثرة عدد الموتى، فالجثث تصل من كل مكان، ولكن «رام كرينا كان شخصية كبيرة بكل تأكيد..»

«يا لك من طاووس متباه! هل تتوقع أن يشكرك أبي لمساعدته في تأكيد الحجز وإعطائنا أوليه؟» كان ذلك يشبه العرض السينمائي الأول حيث يتزاحم رواد السينما! ولكن ماذا عن ضحايا المسلمين في أعمال الشغب والعنف الطائفي؟ تساءلت بيني وبين نفسي، ألا توجد مشاكل خطيرة معلقة.. مثل شراء مساحات صغيرة للدفن وماشابه ذلك؟ يبدو أن الموسم سيكون في ذروته بالنسبة لرجال الدين المسلمين والسيخ... حصاهم سيكون وفيرا.. ولا بد أن تنتعش السوق السوداء... سوق الدفن والإحراق!

كيف سيتصرف «ياما» في ذلك كله؟ فكرت... سيكون مشغولا جدا... طوال الوقت. ولكنه إذا كان قد اختار اللحظة والقاتل والضحية... فلا بد أن يكون هو الذي أشعل أعمال الشغب. ربما كان يفضل عمليات القتل الجماعي.. أليس من السهل عليه أن يدبر فتنة طائفية أو حادث تحطم طائرة أو نشر وباء يقضي به على مجموعة من البشر بضربة واحدة. ولكن والحال هكذا... لماذا لا يشعل حربا نووية كونية تدمر الحياة على هذا الكوكب لكي يبدأ الإله دورة جديدة من الخلق؟ شكلا من أشكال إعادة الميلاد للأرض وتناسخ لكل أرواح البشر؟... الآن كان بإمكانني أن أدرك وأن أرى أكثر مما كنت أفعل قبل موتي... والواقع أنني شعرت بإغراء لأعدل قول الإله «كريننا» المقدس. يمكن أن أقول أن الإدراك الحقيقي، الفهم الحقيقي... يأتي للإنسان بعد فناء الجسد فقط وليس أثناء حياته. تطلعت إلى تبادل الآراء والتعليقات مع الأرواح الأخرى التي انطلقت من أجسادها أثناء أعمال الشغب... كم يكون مثيرا لو أن «ياما» نظم لنا جميعا حفل استقبال!!

مما التقطته من أحاديث جانبية بين المشيعين استنتجت أن وسط مدينة «حيدر أباد» كان يموج بجنون طائفي محموم، ذلك الوباء الذي يجتاح المسلمين والهندوس من وقت لآخر.

ويبدو أن أعمال العنف بدأت عندما كان موكب زفاف هندوسي يمر أمام مسجد مكة، وعندما طغت أصوات الموسيقى الصاخبة والغناء على صلاة بعض المسلمين في المسجد هبوا خارجين صائحين «اقتلوا الكفرة... اقتلوا الهندوس الجرمين...» وعندما سقط العريس بطعنة من سكين أحد المسلمين انقض بعض المشاركين في الموكب على مهاجميهم، ولم تحضر الشرطة إلى مسرح الأحداث إلا بعد أن كانت الجثث قد ملأت الشوارع. وبعد أن وجد قائد الشرطة هذه الفتنة الطائفية محاصرة لم يكن أمامه سوى إعلان حظر التجول.

تمنيت لو أنني أستطيع أن أطير إلى هناك لأرى ما حدث، أفليست الأرواح حرة تستطيع أن تذهب إلى أي مكان في أي وقت؟ ولكن كيف أترك منزلي وهم على وشك الخروج بموكب جنازتي؟ أأكون مثل المضيف الذي يترك ضيوفه ويذهب إلى حفل آخر؟ لم أستطع أن أمضي، فقد كان على أن أشعر بأنني العريس! ألا يحمل الموكب الجنازى نفس الشكل والأهمية التي لموكب العرس؟ ألا يشبه صوت النعي صوت البشير؟

من الطبيعي أنني كنت أشعر بالحزن من أجل العريس الذي اختطفته يد «ياما» في لحظة التتويج في حياته. ولكن لم يكن ثمة فرق بين جسد ميت محمول على محفة، وعريس يحمله ظهر حصان، كلاهما يمضي في أبهة عظيمة! وتساءلت بيني وبين نفسي لو كنا نحن الهندوس قد فكرنا في إخراج الجثة على حصان بسرج مزركش، كان الجسد بالتأكيد سيحتاج إلى دعمتين لتبقى الساقان تتأرجحان على الجانبين كأنهما لشخص فوق صهوة الحصان. لماذا إذن جعلنا موكب الجنازة تتقدمه فرقة موسيقية غالبا ما تقوم بعزف لحن زواج قديم أو لحن من فيلم معروف. ياله من أسلوب غريب لوداع روح مغادرة! بالنسبة لي ما كنت لأمانع في الاستماع إلى بعض الموسيقى الجميلة أثناء جنازتي لو أن «ماري» كانت قد أبلغت رئيس الفرقة باختيارتي المفضلة.. قال «نافيت ديشباندي» لوالدي: «يبدو أننا لا بد أن نصرف النظر عن الفرقة الموسيقية...»، هذه إذن ريشة أخرى ينزعونها من قبعتي! يحدث ذلك بعد أن خطف منصبي وبعد أن حرق بشهوة فاسقة في زوجتي... هذا «ديشباندي» يريد أن يراني محروما من الموسيقى

كذلك!

حملق فيه والدى لتفوهه بذلك الفأل المشؤوم: «لماذا؟» قال: «هذه تعليمات قائد الشرطة بسبب أعمال الشغب في المدينة». رد والدي: «ياإلهي!»

وهكذا حظيت بجنائز صامتة. لاحظت كذلك أن عددا كبيرا من المشيعين كانوا قد بدأوا في التسلسل من الباب الخلفي، فهل ياترى كانوا خائفين من أحداث الفتنة الطائفية؟ وحيث كان لا يسمح للنساء بدخول المحرقة فلا بد أن تبقى أمي مع «مارى» في المنزل، وهذا أفضل لأنها لن تتحمل رؤية جسدي بين ألسنة اللهب! والحقيقة أنني شعرت بالسعادة لهذا الترتيب الهادئ المختصر، فما الفائدة من زحام شديد في المحرقة طالما أن معظم المشيعين يشعرون بسعادة في داخلهم لرحيلي؟ تمنيت ألا يظهر «جورج» أو «رامو» أو «ديشباندي» هناك. وقفت سيارة «دودج» مكشوفة أمام البوابة الأمامية ويبدو أنهم استأجروها لحمل محفتي إلى محرقة «جيرد هارى لال». كانت تشبه سيارات نصف النقل التي ينقل عليها المقاولون الأسمنت والحديد ومواد البناء. قفز السائق من مقعده واتجه نحو آخر السيارة. حمل «بقشيش» و«چوس» ووالدى المحفة على أكتافهم ووضعوها فيها برفق. كانت أمي بشعرها المشوش ووجهها المغطى بالدموع تراقب المنظر، وفجأة دخلت في نوبة من التشنج الهستيرى الذي مزق سكون الكون، فاندفع أبى نحوها وأمسك بيدها قبل أن تهوى على الأرض. أرى وجهه مزموما، ثم دمعة كبيرة تتدحرج على خده الأيسر.. كانت أمي تنوح: «لماذا لا تتركون ابني معي لبعض الوقت؟ أنني لم أقبله حتى قبله الوداع... لماذا حملتموه مثل كتلة الخشب.. كان يجلس في سيارته قبل ذلك كأنه أمير من الأمراء.. وقد وضعتموه كأنه أحد مشردى الأرصفة والطرقات....» وعندما اقتربت «مارى» من أمي في محاولة لتهديتها شعرت وكأنني أريد أن أصرخ: «لاتدعي هذا الكيان يقترب منك.. إنها ملوثة نجسة... ملعونة بعقم الروح والجسد... كيف لامرأة مثلها أن تفهم حزن الأم؟! انظري هناك... هل ترين ذلك الرجل الواقف بالقرب من السيارة؟ هذا هو خليلها... عشيقها المسيحي المحرم... وقتلي...»

أشار أبى إلى السائق ليدير محرك السيارة، كما انطلق عدد قليل من المشيعين نحو سياراتهم... وهاهي أمي غارقة في سكون مشؤوم بعد أن واجهت المحتوم... سمعتها تتمتم لنفسها: «وهكذا يمشون بقطعة مني، بينما تظل أم مريضة.. عجوز على قيد الحياة.. لماذا لا يتركوني أقفز بين أحضان النار وأختفي مع ابني؟ ألم يكن مسموحا للأرامل بالانتحار على طريقة «السوتية»* على ركام أزواجهن في الزمن القديم؟!» وحيث أنني لا أستطيع الآن أن أتصور الحياة القادمة، فليتبني أستطيع أن أنقل إليك السلام والفهم، وأسألك: ترى عند أي عمر

* احراق الأرملة الهندوسية نفسها في محرقة زوجها المتوفي علامة على إخلاصها له (المتزوج).

تدب الروح في الجنين؟ متى تصبح قطعة اللحم كيانا مقدسا؟ عند نهاية الشهر الرابع أم الخامس أم الثامن؟ لقد حملتني في رحمك تسعة أشهر كاملة، تركتيني أشاركك أنفاسك وطعامك وأحلامك... نعم... لقد كنت جزءا من جسدك ولكن حان الآن وقت الفراق. كل ماهو مولود يذهب يأمي... وكل ميت لابد أن يولد من جديد، أليس ذلك ماتقوله لنا «الجيتا»؟ تعرفين أنني بنهاية اليوم الثالث عشر سوف أولد مرة أخرى، لوحالفني الحظ فإنني أولد على هيئة إنسان، سأبرز من رحم آخر... أمارس دورة من دورات الوجود إلى أن يقبضني «ياما» مرة أخرى. سوف تنوح وتولول على جسدي أم أخرى كما تفعلين الآن بالضبط.. وهكذا تظل العجلة تطحن إلى الأبد... أليس ذلك هو قدر الإنسان إذا لم يتحول المرء إلى «بوذا» أو «المسيح» أو «غاندي» ويصل إلى النرفانا! ولكن هذا الاعتناق من دورة الميلاد والموت ليس للخطاة أمثالي. لذا فلتودعي جسدي دون عويل عساني أحصل على بعض السكينة قبل إعادة ميلادي،... امنحيني بركتك قبل أي شيء آخر..»

همس «جويال» في أذن أبي «لابد أن نتحرك الآن!» نظر أبي إلى السماء فرأى أنها كانت قد فقدت وهجها.. استطالت أوراق أشجار جوز الهند المدببة حول سور المجمع السكني وامتدت على الممر المفروش بالحصى كأنها رماح أو سيوف ملقاة على أرضية مستودع للأسلحة في ساعة الجرد.. قال أبي «نعم... حان وقت الرحيل..» وصعد إلى العربة وجلس بجوار السائق.

انطلق موكب السيارات خلف العربة «الدودج» يتهادي عبر انعطافات الشوارع، بينما كان صدى صراخ أمي يتردد في الجو. بعد ذلك زاد الموكب من سرعته عندما خرج إلى طريق «راشتراباتي».

نمر الآن على «جسر ريدي» عبر سوق الخضراوات المركزي وعبادة «سوماجي جودا» وفجأة توقفت جميع السيارات. قفز السائق من مقعده وفتح غطاء الدودج الأمامي.. ثم نزل والذي أيضا.. قال السائق: «أعتقد أنها مضخة الوقود.» سأله والذي: «وكم يستغرق إصلاحها؟». كان الآخرون قد نزلوا لاستطلاع الأمر...

- «عشرون دقيقة تقريبا ياسيدي..» قلت في نفسي: «اللعنة على كل شيء! أكان يجب أن تتعطل تلك العربة البائسة في هذا المكان تحديدا بالقرب من تلة عثمان؟! أم ترى ذلك من تدبير «ياما» الذي يريد أن يضطرني لتذكر ذلك المساء المرعب؟! ليت «جوس» لم يقترح علينا ذلك الطريق الملتف! ولكن كيف كان له أن يعرف أنني سوف أحتجز هنا؟ ليتني أستطيع أن أطرده كل ذكرى لذلك. وعلى الفور، شعرت بأن قوة ترفعني رغما عني على التل.. وبمجرد أن وصلت إلى القمة انفجرت ذكريات ذلك المساء.. وبكل الوعي... وبكامل تفاصيلها الحزنة... كل كلمة... كل إيماءة.

«لماذا جئت بي إلى هنا؟»

كان ذلك أول ما نطقت به «ريزيا» عندما صعدنا التل.

- «ألا يعجبك المكان؟ هذا الهدوء؟ إنها جنة عدن!»

قالت: «لا شك أنك مجنون! لا توجد ورقة عشب واحدة هنا، لا شيء سوى الصبار والرمال العارية... وجلاميد الصخر من حولنا في كل مكان...»

«نعم، ولكن أليست جميلة؟ إنها مشدبة كأنها أعمال نحتية، تخيلي نفسك مستلقية فوق واحدة من تلك الصخور الملساء ساعة الغروب! ترقبين السحب من فوقك وهي تتخذ أشكالاً مختلفة... مجموعة من كلاب الصيد ذات الأجسام المصقولة وهي في مطاردة ساخنة، قطيع من التماسيح، لباس مهرج في سيرك، كتبية من الجنود تتحرك... وفجأة، وثب عصفور أرقش فوق صخرة صغيرة وراح يسقسق كأنه يشارك «ريزيا» سخريتها مني..»

- «تسخرين من ملجئي يا «ريزيا»؟»

- «حسن! هذه جنة عدن عندك، ولكن لماذا أتيت بي أنا إلى هنا؟»

كانت تسألني وهي تغمز بعينها في غنج جميل! «لكي ترسمني عارية؟ لكي تمارس الجنس؟»

- «لا هذا ولا ذاك!»

- «لماذا إذن؟»

- «لنلعب آدم وحواء»

- «وما هذه اللعبة؟»

- «أن نستلقي هنا. عاريان فوق هذه الصخرة... يتأملان السماء.»

- «تأمل مقدس! مصور وعاشق ومجنون... ثالوث غريب.»

ومن بعيد، كانت سرينة أحد المصانع تنادي عمال وردية الليل. نظرت إلى ساعتني.. السابعة والرابع. كانت كرة الشمس البرتقالية قد أظلمت ثم انزلت بهدوء وراء الأفق الرمادي، وبرز القمر في مجده الأبيض ليعبر كالبهجة على صفحة السماء، في حركة متوازنة تشبه حركة البالية، ناعمة كتاج زهرة جميلة.. قالت «ريزيا» وهي تتطلع إلى القمر: «انظر! هاهو ينظر إلينا، ركز عينيك على حافة أنفه يأتيك الوجه كله حياً... جبهته العريضة، عيناه، فمه، ذقنه، طلة

إنسانية كاملة. هل هي امرأة وحيدة تحرق في حبيبها نصف الإله!..»

- «رائع! انتقلت العدوى إليك إذن! إسمعي يا «ريزيا» أنت مولودة لتكوني زوجة فنان، حبيبته، حتى ولو كان الذي وضع بذرتك هو «نواب سليمان علي»
- «لأمكن سخيها يا «رامي»!»

لابد أن أكون قد بدأت التطلع إلى القمر، لأنني عندما عدت لأنظر إلى «ريزيا» وجدتها مستلقية إلى جوارى عارية... امرأة غسلت جسدها ومسحته بالزيت المقدس من أجل طقس ديني وقربان إلهي!

قالت همسا وعيناها تلمعان في ضوء القمر الصريح: «كيف حالك يا آدم؟»
شعرت وأنا أنخلع ملابسي بأنني مسحور بجمالها الآخاذ، ذلك الجمال الذي لم ألقه في حدود غرفة نومها...

قالت: «أراك مستغرقا في ضوء القمر..»
- «القمر مثل الرسم، يخلب لبي دائما، كما يحدث عندما يندمج الدهن تماما في اللوحة أثناء العمل، ويفقد المرء كل صلته بالعالم..»
قالت باسمه: «ضرب من التأمل.. التفكير.. الاستغراق الداخلي»
- «لا أعرف!»

انهمرت على أذني جلبة من الأصوات، أزيز خنفساء، نعيب بومة مكتوم من الجانب الآخر للتل كأنها لا تنصبر حتى ينتهي الغسق ويغيم الليل، حفيف مجموعة من العصافير على شجرة قريبة. وبدأت يد تربت برفق على صدري مع لهاث عميق.... همست: «لا يا حبيبتي، يجب أن نكتفي بمراقبة السحب والقمر.»
- «لماذا؟»

- «ألم تزل حواء حتى حملت؟ إن الجنة ما كانت مهياة لأطباء الولادة ولا القابلات ولا أطباء الإجهاض.. كل ذلك جاء بعد الحية!»
- «لا يهم، (كانت تهدل وهي تنهض لكي تعانقني) دع الحية تسعى الآن... وهنا!»
- «مازلت أشعر بأن علينا أن نلعب اللعبة طبقا للقواعد وربما في وقت آخر...»
- «لا.. فلن فعلها الآن وهنا!»

كان صوتنا أجش، ذلك الذي دوى عاليا من وراء الصخرة التي نرقد عليها، وقبل أن نهض رأينا ثلاثة رجال يتدلى من أحزمتهم قراب مسدسات أمامنا في ضوء القمر. أضخمهم حجما، كان رجلا من طائفة السيخ له شارب كث هجم عليّ، بينما راح الآخران اللذان كانا يرتديان برانيط خضراء يوثقان «ريزيا» على الأرض ويكتمان أنفاسها لمنعها من الصراخ.

وبدأ الرجل الذي هاجمني يلوى ذراعي اليمنى فشعرت بأنها سوف تنخلع من ريشة كتفي. وبينما كنت أزحف تحت وطأة الألم الشديد، فك عمامته واستخدمها جبلا ربطني به من رجلي ويدي في شجرة ثم حشر منديلا في فمي. وبعد أن تركني مقيدا مكتوم الصوت خلع سترته الحمراء وبنطاله وملابسه الداخلية وزرع نفسه فوق صدر «ريزيا» منفرج الساقين، بينما كان الآخران يمسكان بساقيها بعنف على الأرض.

كان الدم يغلي في وجهي وقلبي يقفز في صدري والدموع تتدفق من عيني، فتمنيت لو أن لي قوة إنسان الكهف لكي أحرر نفسي وأعصر رقاب أولئك الأوغاد. ولكنني كنت أعرف أنني لست سوى إنسان ضعيف، قدره أن يمسك بالفرشاة ليلطخ القماش بالألوان... مجرد مصور مسكين! تمنيت لو أنهم عصبوا عيني كي لا أرى منظر امرأة لاحول لها ولا قوة تغتصبها شياطين.. عندما كانت «ريزيا» تحاول أن تخلص نفسها من بين مخالبهم وهي تركز بقدميها وتخمش بأظفارها مثل قطة متوحشة. ولكن سرعان ماخارت قواها وهي ملقاة مثل الجثة. كنت أنا أيضا أشعر بأنني جثة مربوطة بشجرة تركوها مدلاة تتأرجح بعد أن صوبت عليها كتيبة من الرماة، وبعد أن انتهوا منها ارتدوا ثيابهم وتركوها. زحفت «ريزيا» على قدميها وذرث نفسها بالسارى وعيناها تقدحان غضبا وشفثاها ترتعشان. ثم تقدم «السيخ» مني وأخذ يفك عمامته قائلا وهو يبتسم: «حسن يارفيق»، ثم وبريق الانتصار في عينيه: «لابد أن تتعلم أن تشرك الآخرين معك في كل الأشياء الطيبة.. ألم تعلمك أمك ذلك في الصغر؟»

ومثل النمرة الجريئة، انقضت «ريزيا» على الرجل فركلته في ظهره وأنشبت أسنانها في ذراعه اليسرى. لم يحاول الانتقام، كل ما فعله هو تصنع ابتسامة صفراء، ثم قال في خبث: «أيتها الغاضبة الصغيرة، ذلك هو نوع العاطفة المتقدمة التي تضى الحب ثم استدار نحوى» ولكن إذا حاول رجلك أن يحرك إصبعه الصغير فسوف نطلق عليه الرصاص ونتركه هنا للنسور».

وعندما انتهى كان الرجلان يخرجان مسديهما ويصوبانهما نحو رأسي. بعدها نظر «السيخ» إلى «ريزيا» وهو يقول:

«فليباركك الرب ثلاثا»

قالت وهي تصر على أسنانها: أيها الأفاعي! رد عليها: «هذا رجلك الشجاع، هادئ وحذر لأنه يعرف حدوده. رجل عاقل بالفعل!». أدركت أن الطلقات كان يمكن أن تكون أهون من

تلك الكلمات الخبيثة الموجهة بينما أقف عاجزا عن الحركة يملؤني العار. كأني حشرة سحقها حذاء صلف. حتى بعد انصراف المغتصبين وبينما هم يصفرون كنت مسمرا في الشجرة وكأني تحت تأثير مخدر، أهدق في القمر وأتخيله يخرج لسانه لي، ويصب سخرته على ضعفي وخنوئتي..!

بعدها سقطت على رأسي قطرة ماء. هل كان يبصق على؟، أم أنها بداية مطر..! مدركة مدى ما أنا فيه من خزي وشعور بالهوان، تناولت «ريزيا» قميصي وبنطالي وأعطينهما لي:

— «ارتد ملايسك!»

وبينما أنا أرتدى ملايسي أدركت أنها رغم كونها الضحية في كل ما حدث إلا إنها استعادت هدوءها، أما أنا فكنت في حالة شلل تام.

«نعم» قلتها متلعثما، وبعد دقيقتين سمعت طلقة نارية ثم صوت انفجار.

هبطنا ببطء من على التل وذهبنا إلى السيارة التي كنت قد تركتها بالقرب من المنحدر بين صخرتين. وعندما أدركت المحرك هبطت السيارة من أحد جانبيها.

قلت: «ربما يكون أحد الإطارات قد فرغ من الهواء». كانت تلك هي الطلقة... آخر أعمالهم الشريرة! أخرجت الرافعة من مؤخرة السيارة وبدأت في استبدال الإطار وفي صمت المساء كنت أسمع تساقط زخات المطر فوق العشب الجاف، وبعد وقت قصير كان الماء قد أغرق رأسي وكثفي.

لم ينطق أي منا بكلمة حتى أوصلت «ريزيا» إلى «قصر جولشان»: قالت وهي تغادر السيارة: «لا أعتقد أنك ستقربني مرة أخرى، لقد أصبحت ملوثة كما تعرف.. نجسة كما لو كنت عائدة من المحرقة».

قلت: «فلننس ما حدث لنترك كل شيء وراءنا»

— «حسن! لا تذكر شيئا عنه لأي شخص..»

— «بالتأكيد»

— «ولا حتى بيننا وبين أنفسنا...»

— «أبدا»

وعلى طول طريق العودة إلى منزلي كانت صورة واحدة هي التي تطفو في ذهني... جثتان!. واحدة مطروحة ومثبتة على الأرض والثانية مقيدة بالشجرة.. وداخلي كله شعور مؤلم

وإحساس بالإهانة... ولكن ماذا عنها؟

عندما التقيت «بقشيش» في المساء التالي قي «نادي النظام» كان يلاحظ توتري، وعندما طلبت عصير البرتقال بدل الويسكي سألني: «ما بك؟»

- «لا شيء»

- «قلق روحك باد في عينيك.. هل حدث شيء بينك وبين.....»

قلت - «ريزيا؟... لا.. هي بخير!»

ورغم تعهدي لها بأنني لن أشرك أحدا في صدمة المساء الماضي إلا إن الرغبة الداخلية في إفراغ هذا العبء النفسي كانت شديدة.

وبدأت: «ألا يخفض الإحساس بالإهانة من الروح المعنوية؟» وضع «بقشيش» كأسه وتقدم في مقعده كأنه يفتش في وجهي عن مفتاح لما بي من قلق....

- «هل يدبر «ديشباندي» مؤامرة ضدك؟»

- «لا علاقة له بشيء من ذلك..»

- «سر؟ تبدو عليك علامات التفلسف!»

- «هل فكرت مرة في الشعور بالإهانة.... بالخزي؟»

- «بالطبع، ولكن ذلك لا بد أن يكون متعلقا بموقف محدد...»

قلت - «ولكن لماذا لا نناقش هذا الشعور بشكل عام؟»

- «حسن! ولكنه يمكن أن يكون مدعاة لنبل الروح أيضا، يمكن أن يكون عملا من أعمال التطهر الذاتي، فهو دائما مرادف للوعي.. إنها تلك اللحظة التي يكون المرء فيها يقظا وعلى وعي كامل بنفسه.. أنا أعاني إذن أنا موجود... هل تذكر من الذي قال ذلك؟»

قلت وأنا أرتشف عصير البرتقال: «أعتقد أن ذلك كله مجرد تفاهة مبتذلة؟». وبعد أن أيقن أنه لن يفلح في استدراجي للروح بشيء، تناول كأسه واعتدل في مقعده وهو يقول: «لماذا لاتدعك من هذه الأشياء؟!»، وبعد فترة صمت كنت أسأله:

«هل حدث أن امتهنت؟»

قال بصوت كئيب: «نعم... حدث ذات مرة!»

- «وكيف كان ذلك؟»
- «ذات مرة صرخ وزير الدفاع في وجهي أمام نائبى في محاولة للاستهزاء بي، وهدد بتحويلى للتحقيق في مخالفات مالية مزعومة.»
- «وكيف كان رد فعلك إزاء هذه الإهانة؟»
- «ابتسمت وأنا أعرض أن أقدم كل دفاتري للمراجعة.. لأي شخص في أي وقت!»
- «ترى... لماذا فعل ذلك معك؟»
- «أعتقد لأنني لم أحضر حفلا كان مقاما على شرفه، وكما تعلم لم أقصد أن أكون وقحا معه... ومع ذلك فقد علمني الامتحان الذي تعرضت له شيئا....»
- «وما هو؟»
- «أنني إنسان قابل للدرج! لا بد أن يكون لديك الشفقة حتى على إنسان يؤذيك... وفي مثل هذه الحالة يكون وعيك في قمته....»
- قلت وأنا على وشك أن أكشف نفسي: «ولكن ذلك كان أمرا تافها..»
- «مقارنة بما حدث لك؟»
- «لا.. لم يكن أمرا شخصيا...» قلت ذلك بصوت خافت وأنا أنظر بعيدا عنه.
- شيء ما في كلام «بقشيش» لمسنى من الداخل، فالتجته مباشرة بعد الانصراف من النادي إلى «قصر جولشان». سألت «ممتاز» التي كانت جالسة في الحديقة لاتفعل شيئا:
- «هل «ريزيا» موجودة؟»
- «لقد أغلقت الباب على نفسها ياسيدي منذ مساء أمس.. لا أكل.. لا شرب... لا شيء بالمرة.»
- وتركت «ممتاز» مكانها، فتوجهتُ إلى الباب وطرقته بهدوء:
- «من؟»
- «أنا...»
- سمعت وقع أقدام مضطربه على الأرض ثم أطل من الباب وجه متعب شاحب: «أنت؟»
- أغلقتُ الباب ورائي وأخذتها من يدها برفق إلى السرير. عندما لحت عيني لوحة «ديجا» -

الراقصة- على الحائط اكتشفت أنني أمام وجهين متناقضين: وجه الباليرينا المبهج ووجه «ريزيا» الذابل. خلعت ملابسي بسرعة وزحفت إلى السرير:

- «تعالى يا «ريزيا»

ولكنها وقفت متحجرة مثل أرنب بريّة فاجأتها أضواء سيارة مبهرة في منتصف الطريق، قفزت وجئت بها برقة إلى الفراش.

كانت ترقد إلى جوارى ذاهلة ومنكمشة فشعرت أنني لو نظرت في عينيها سأرى صورة المغتصبين مجمدة فيهما.

همستُ: «تعالى...»

قالت: «ولماذا لانكتفي بالاستلقاء هكذا؟»

- «وهل هذا طبيعي؟»

افتر وجهها الشاحب المكدود عن ابتسامة واهنة فجمعتها بين يدي، وعندما بدأت أقبّلها كانت قد أصبحت لينة مثل الصلصال. كنت أجردها من ملابسها وعيناها تراقب أصابعي وهي صامتة. عندما مارسنا الجنس في ذلك المساء تذكرت العصفورين في غرفة الكاهن في معبد «أريا ساماچ» عندما كانا يمارسانه برقة بالغة... لاتدافع ولاطيش في استخدام مناقيرهما الصغيرة. وفجأة اهتزت «ريزيا» في الفراش وغطت وجهها بكفيها وبدأت تتنحب....

- «ماذا الآن؟». سألتها ويدي اليمنى تربت على شعرها بخنان. وبعد صمت لم يطل قالت:

- «شكرا».

كنت وأنا أهبط من التل كأني أهبط في حارة ذكريات متعرجة مظلمة. عذاب بالغ أن يخترق الوعي حياتي السابقة. كان موكب جنازتي يتحرك ثانية بعد أن انتهى السائق من إصلاح مضخة الوقود... بالمصادفة.... مضخة ساخنة وإطار مفرع من الهواء!

عندما اقترب الموكب من تمثال «غاندي»، أول نقطة بعد منطقة حظر التجول، كان زحام المركبات والمشاة كثيفا فغدت الحركة بطيئة. ترى هل كان الناس يتسابقون لشراء احتياجاتهم قبل موعد حظر التجول؟ وعندما كان شرطى المرور يشير للجميع من أجل إخلاء الطريق لكي يتحرك الموكب... هل كان ذلك احتراماً للميت؟ رأيت المارة في الشارع يقفون كلهم فاغرين أفواههم وهم ينظرون إلى محفتي...

قال أحدهم: «هذا «رام كريشنا» ، المصور المشهور.»
«كنت أنوى زيارة معرضه في قاعة اليوبيل الشهر القادم.»
«لا الزمن ولا المد ينتظران أحدا.»
«إن الله يختار من يحبهم أولا»
«يالله من يوم يموت فيه ! إنه يمض إلى «بارلوكا»* دون موسيقى!»
«كان رجلا طيبا، هل سمعتم الكلمات الجميلة التي نعاها بها الراديو هذا الصباح؟»
«راديو عموم الهند يمكن أن يقول مثل هذا الكلام عن أي شخص... ياعم! إنها كلمات
محفوظة...»

- ٨ -

عندما وصل جسدي إلى محرقة «جيرد هاري لال» كانت صدمة أبى شديدة إذ رأي ست
بقع مشتعلة بالفعل، بينما كان هناك عدد آخر من الجثث الملفوفة بالحريز الأبيض مسجاة على
الأرض على امتداد الحائط في انتظار دورها. كانت الجثث المدثرة بالأبيض أشبه بمسافري الليل
الذين ينتظرون قطارا في ليلة شتوية.

قال «جويال» لأبي: «لماذا لا تنتظر بالقرب من الجثة بينما أذهب لمقابلة الكاهن؟ أعتقد
أنني يمكن أن أصل إليه..»

قال أبي: «و«كيشوري لال» أيضا بعث برسالة..»

- «وهذا مفيد كذلك...»

مضى «جويال» إلى مكتب الكاهن فوجده جالسا هناك خلف الطاولة غير عابى بالفوضى
الموجودة في الخارج. دخل بهدوء ووقف وراء رجل آخر كان يجمع رماد جسد تم إحراقه..
وبابتسامة متكلفة سأل: «هل تتذكرني يامعلمي؟»

أجاب الكاهن: «بالطبع ياسيد «سينون».. هل كان ابنك؟» انقبض وجهه وعلته الكآبه وهو
يقول: «نعم... ولكن هل يمكن أن أطلب منك خدمة؟»

- «تفضل!»

- «لقد جئت من أجل إحراق جسد صديق عزيز ويوجد في الخارج زحام شديد وطاير
طويل..»

ابتسم الكاهن وهو يتململ في كرسيه ونظر من النافذة إلى الساحة الخارجية، وقبل أن
ينطق كان «جويال» قد وضع على الطاولة خمس ورقات من فئة العشر روبيات. اتسعت ابتسامة
الكاهن وتمددت شفتاه وهو يكنس النقود بيده.. ثم قال وهو يدفع السجل أمام «جويال»: «في
هذه الحالة لماذا لا تملأ البيانات نيابة عن أصحاب الشأن؟ كذلك يمكن أن نعتبر ذلك حجزا
مسبقا..»

- «شكرا يامعلمي...»

وبعد أن وقَّعَ على السجل سألَه جويال: «ربما تكون قد تلقيت رسالة يامعلمي بنفس الخصوص من «سث كيشورى لال» ..

- «لا...»

كذب «كيشورى لال» إذن! ياله من مخادع غشاش! الرشوة فقط هي التي دفعت العجلة إذن وحركت العملية كلها.

والآن... وضعوا جسدي على الركाम المشتعل واقترب مساعد الكاهن حاملا كتابا في يده اليسرى..

سأل «جويال» وهو يشير إلى جسدي: «أين ابن المتوفي؟» ارتبك الكاهن، فشرح «جويال» أن المتوفي هو ابن ذلك الرجل، وسوف يقوم والده بالطقوس الأخيرة.

- «أين هو إذن؟»

رد والدي: «أنا هنا يامعلمي..»

عندما أشعل والدي الركام ارتفعت ألسنة اللهب وكانت دموعه تلمع على خديه مثل حبات الندى في صباح صيفي..

تنهد والدي وهو يقول لـ«بقشيش» الذي كان يقف إلى جواره:

«.. هذه هي نهاية ابني...»

الآن أدركت لماذا لايسمح الهندوس بدخول نسائهم إلى المحرقة.. لو أن أمي هنا لقفزت في النار في هذه اللحظة. وبدأ الكاهن يتلو من الكتاب الذي يمسك به في يده:

«عندما يفنى جسدك في اللهب

ستذوب أنفاسك في الريح

وعيناك في الشمس

وعقلك في القمر

وسمعتك في أركان السماء

وجسدك في الأرض

وروحك في الفضاء
ويتحول الشعر الذي على رأسك إلى نبات
والذي على جسدك إلى شجر
بينما دمك ومنيك
وما يتبعك إلى «بارلوكا»
بعد فناء الجسد
سيكون هو الكارما...
الأعمال وليس الأمنيات..
وبينما كان الكاهن يواصل ترتيله بصوت رتيب بارد، كانت عيناه تتجولان كأنه يبحث عن
الإعجاب على وجوه جمهوره بسبب أدائه المتقن، وفجأة طنت حولى همسات غريبة:
- «هكذا نلتقي هنا»
تملكتني المفاجأة!
- «هذا هو «راما سوامي»، أو روحه بالأحرى إن كنت تفضل أن أقول ذلك.»
- «يالها من مفاجأة ياسيد «راما سوامي»
- «يمكنك الآن أن تدعوني بـ«رام».
- «وإذن أنا «رامى»
قال الصوت: «لم أنتبه أبدا أن اسمنا الأول واحد...»
- «نعم!»
- «كيف حالك هنا يا «رامى»، أقصد كيف كان فراقك لجسدك؟»
- «غرقا.»
- «حادث؟»
- «لا»
- «ولا أنا... توجد دائما يد خفية وراء الأشياء»

- « هذا ما ذكرته الصحف. ولكنها... كانت واحدة من نسائي... هل تذكر تلك التي أحضرتها إلى الاستوديو عندك في آخر مرة؟ »

قلت: - « وكيف تتوقع أن أتذكر كل نساءك؟ ألم يكن لديك سرب كبير منهن؟ »
سمعت ضحكا في الهواء.

- « حسن! كانت واحدة من السرب! شاهدتني مع امرأة أخرى فقامت برشوة سائق شاحنة شيطان لكي يصدم سيارتي وأنا عائد من اجتماع عمالي... »
- « حقا! »

- « ولماذا يكذب الموتى؟ لماذا نلجأ إلى المزاولة؟ لا أحد هنا لكي نخونه، لا أحد هنا لكي يخطف منك وظيفتك أو أي شيء آخر... لاشيء هنا سوى معرفة الذات... »
- « حسن! وأنا كذلك كانت هناك امرأة في حكايتي، هي زوجتي الحبيبة التي جعلت عشيقها يدفعني في نهر موسى! »
- « يا إلهي! »

ثم ساد صمت بيننا.

عدت لأسأله: « منذ متى وأنت هنا؟ »

- « منذ الظهيرة، هل ترى ذلك الرجل الذي يرتدي «الدوطة»^(٢) و«الكورتا»^(١). إنه ابني، وهو يقوم بجمع عظامي ورمادي. »

ولأن النار كانت قد أتت على نصف جسدي تقريبا، كان بعض المشيعين قد بدأوا في الانصراف، حيث توجهوا إلى الحنفيات العامة في الساحة خلف مكتب الكاهن وبدأوا يغسلون أيديهم وأرجلهم ووجوههم لكي يطهروا أنفسهم، رغم أن أحدا منهم لم يلمس جسدي.

يالها من هوة تلك التي تفصل بين الإنسان الحي والجثة! كنت أفكر. ذلك الكائن الحي الذي كان يسبح في الماء ويرسم ويستمتع إلى الموسيقى ويمارس الجنس.... وتلك الكتلة التي تحترق وسط اللهب!

General Officer of the Alexandrian
Department of the Interior

Signature of the General Officer

(١) مئزر للرجال في الهند.

(٢) صديرة

عرفت أن لاشيء سيكون في الانتظار في المنزل سوى عويل أمي، ولذا قررت أن أبقى في المحرقة. من المؤكد أنه ستكون هناك أرواح أخرى عديدة تخوم من حولي، أفلا يكون الحوار وتبادل الأفكار معها مثيرا؟!

بعد دقائق معدودة من مغادرة أبي و«بقشيش» و«جويال»، جاؤوا بمحفة أخرى إلى المحرقة. كان البكاء شديدا والعويل عاليا! ولكن لماذا كل ذلك مع أن الموتى سواسية في تحطيم قلوب الذين يحبونهم؟!

سمعت طنيناً في الهواء: «مساء الخير ياسيدي!»

- «من؟»

- «أنا «لاليت ديوي» ولكنك لن تعرفني، سمعتك تتحدث مع روح أخرى منذ دقائق وعرفت من صوتك.. كنت قد سمعتك قبل ذلك تتكلم في معارض كثيرة.»

قلت وأنا سعيد بشهرتي حتى بعد موتي: «سعيد بلقائك!»

- «كنت عضواً في نادي الرسامين الشبان والحقيقة أننا سبق أن التقينا في»

قاطعته قائلاً: «كيف جئت إلى هنا؟ ولماذا كل هذا البكاء والعويل؟»

- «أنا العريس الذي طعن هذا الصباح بالقرب من مسجد مكة.»

- «يؤسفني ذلك! لقد سمعت بالفعل عن أحداث الشغب والعنف التي تلت ذلك، ولكن يالها من موة مأسوية... لقد خلفت أرملة وراءك!»

- «ولكننا لم نكن قد تزوجنا بعد... كما ترى»

- «على الأقل تركت وراءك حبيبة!»

- «ولا كانت حبيبة! إنها علاقة عابرة بين جيتاري وصوتها! وأنت تدري كيف تنتهي مثل تلك الأمور. لقد حملت وأصابني الذعر، واقتربت عليها القيام بعملية إجهاض ولكنها لم توافق، قالت: سأحتفظ به للذكرى إن لم تتزوجني!.. ألا يعتبر الإجهاض أيضاً قتلاً للجنين بعد أن دبّت فيه الروح؟ أنت تعرف كل تلك المسائل المقدسة... المهم أنني وقعت في فخ الزواج!»

قلت: «ألا تعرف أنك خلقت مشكلة؟ أنت مسؤول عن زرع روح في رحم تلك المرأة، وأنت الآن على وشك الاندماج في رحم امرأة أخرى... رحم أمك المستقبلية!»

- «ياإلهي! لم أفكر في شيء من هذا القبيل بالمرّة، لم أربط بين كل ذلك... ولكن ألم

أعرض عليها الزواج بينما كنت أحب امرأة أخرى بالفعل؟!»

قلت - «هناك إذن وتر آخر في حياتك!»

- «نعم! وهو وتر جميل، والحقيقة أنني كنت على وشك أن أخبرك كيف التقينا آخر مرة في الحفل السنوي للرسميين الشبان منذ أسبوعين... فقد كانت هناك أيضا...»

- «ومن هي؟»

- «برائيتما ساسترى»...

جفلت عند سماع الاسم. كيف يمكن أن أخبره أنها كانت عندي في المنزل هذا الصباح فقط؟ هل يمكن أن أعرفه أنها مازالت تحبني؟ وإذا كان الموتى لا يكذبون فإن حجب الأشياء ضرب من الكذب. الحمد لله لأن الأرواح لاتسمع أفكار بعضها الآخر..

- «وبالمناسبة.. لقد تأثرت جدا بنظرياتك عن الفن والجمال... أفكارك مدهشة!»

- «شكرا!»

وبعد صمت طويل عاد يقول: «ويبدو أنك تتذكرها أيضا!»

- «ليس بالضبط»

وهنا قررت أن آخذه بعيدا عن الموضوع خشية أن يستدرجني أبعد من ذلك.

- «أريد في الحقيقة أن أسألك عن شيء..»

- «ماهو؟»

- «أعمال الشغب تلك... من ياتري المسؤول حقا؟»

قال بلا تردد: «ربما كان أبي. لقد استأجر فرقة موسيقية من خمسين شخصا وصمم على المرور بها من أمام المسجد أثناء الصلاة... وكأنه يشن هجوما على قلعة مغولية. وأنت تعرف بالطبع شعور المسلمين حيال عزف الموسيقى الصاخبة وهم مندمجون في الصلاة. بالنسبة لهم يعتبر ذلك استهزاء بطقوسهم..»

- «نعم! ولكن أن تكون تلك هي رؤية هندوسى مثلك فهو أمر غير عادي..»

قال - «لعل الموت هو الذي يفعل ذلك. إنه يزيل الغشاوة من على الأعين فترى كل شيء من منظوره الصحيح!»

– «وماذا عن المسلمين الذين تركوا الصلاة وانقضوا على حفل الزفاف؟ أي صلاة تلك إذن؟»

– «وهم أيضا لا عذر لهم!»

– «ليتنا نستطيع أن نؤسس ناد لكل الأرواح نتبادل فيه الرأي..»

قال بذكاء: «ولكنه لا بد أن يكون متحركا... العضوية لمدة ثلاثين يوما فقط، ألسنا مثل مسافري الترانزيت نتوقف في كل مطار لفترة قصيرة؟»

– «نعم!»

قلتها وأنا أضحك. وبعد أن خرجت مسرعا من المحرقة رأيت وجه الشمس الأصفر يكتسى لونا رماديا.. كان يتوارى في السماء مع خيوط من البني والبرتقالي مازالت معلقة بالأفق. أدركت أن النهار سرعان ما يذوب في المساء ويترك المحرقة مروعة مقبضة.

في الأفق أمامي تتبدى ظلال العزلة واليأس. فهل ستكون مثل «ليل الروح الأسود» عند «سان چون»؟ انتابني الخوف! لماذا لم تظهر «ريزيا»؟ وهل تراها قد عرفت بموتي؟!

جعلني الانتقال من محوقة «جيرد هارى لال» إلى «قصر جولشان» رغم بعد المسافة، أشعر أن الروح تنتقل في الأثير أسرع من الصوت. كأنها لقطة كاميرا أوتوماتيكية أو طرفة عين أو الخفقة الأخيرة لذبالة شمعة!... ولم يكن هناك أدنى إحساس بالتعب..

أدركت أيضا أن الأرواح لاتنام ليلا أو نهارا... ليست في حاجة إلى أسرة أو كراسى هزازة أو أرائك فهي ترفرف في الأثير دون توقف. بحثت عن «ريزيا» في كل أرجاء القصر... في غرفة الاستقبال.. في غرفة النوم.. وفجأة سمعت خليطا من الأصوات في جناح والدها... هل كانت معه؟ كنت قد ذهبت إلى هناك مرة واحدة في آخر احتفال أقامه بمناسبة رأس السنة. تذكرت ردهة الانتظار الفسيحة وأرضيتها الرخامية المفروشة بالسجاجيد السورية، والأثاث المصنوع من خشب الورد، والبسط العراقية المزينة برسوم نساء عربيات يقدمن النبيذ لعشاقهن في كؤوس بيضاء، أو الجمال المغطاة بسروج مزركشة تحمل أزواجا من المحبين حيث يطوق الواحد خصبر عشيقته بيميناه وهو يقطع فضاء الصحاري الواسعة. عندما دخلت إلى الردهة رأيت مشهدا غريبا. كان «نواب» يجلس في أبهة على أريكة وثيرة ومن حوله صديقه «سمرخان» و«شودرى بركات على شاه» وكانوا يشاهدون صراعا للديكة تحت ضوء ثريات ساطعة، وعلى كرسيين منفردين كانت «ريزيا» وشقيقها «بابار» يجلسان غير مكترئين بالديكة ولكنهما ينظران بقلق نحو والدهما. بدت «ريزيا» وركبتها ممدودة إلى الأمام كأنها تريد أن تلفت انتباهه إليها، بينما الأب مستغرق في مشاهدة الصراع ولا شيء سواه. كانت السجاجيد والبسط مطوية لتفسح مكانا للديكة. في كل مرة كان الديك ذو الذيل الأحمر ينفش ريشه ويهاجم خصمه ويغمد منقاره في جسده كأنه يطعنه بسيف، ومن الأريكة يتصاعد التصفيق والمرح.. ثم أحمر وجه «نواب» فلفظ أوراق «البيتل»* من فمه بعد أن أصبح شديد الإحمرار.. كان منذ الصباح يمضغ تلك الأوراق وإلى جواره وعاء يصبق فيه من وقت لآخر كلما امتلأ فمه بالعصارة، ولكنه لم يرفع عينه من على الديكة لحظة واحدة.

وفجأة استدار ناحية سكرتيه الذي كان يقف وراءه مثل الحاجب وهو يقول بغضب: إفضل بينهما يا «ذاكر»، لقد فقدت تلك الكائنات العنينة همتها.. دعهما يشربان بعض

* أوراق نوع من الفلفل الحار المتسلق يجفف وتمضغ كالتبغ. (المترجم).

الشمپانيا عليها تبعث فيهما الحمية. أريد قتالا حقيقيا، وليس هذا العرض التمثيلي. وعلى الفور أشار «ذاكر» إلى خادِم طويل القامة عريض المنكبين فقفز إلى ساحة القتال وفصل بين الديكين ووضع أمام كل منهما وعاء بالشراب. وبمجرد أن بدأ الديكان يتجرعان الشمپانيا اشتعلت عيونهما بالحمرة وكأنها العقيق، وشعرا بأنهما امتلآ بالطاقة من أجل جولة أخرى. وقبل أن يطلقوهما... نهضت «ريزيا» من كرسيها وتقدمت نحو والدهما...

- «آبا... أريد أن أتحدث معك في أمر عاجل. همهم «نواب» وعيناه على الديكة: «اللعة!» ثم استدار نحوها بغلظة.. «هل الأمر عاجل فعلا؟ وهل هذا وقته؟»

- «نعم يا أبي»

- «تعالى يا عزيزتي.. وهل هناك أجمل من مشاهدة صراع للديكة!»

ثم نظر إلى صديقيه وهو يقول: «أليس كذلك؟»

فقالا في صوت واحد: «بلا!»

احمر وجه «ريزيا» من شدة الغضب فعادت إلى مقعدها واستؤنف القتال كأنهما ملاكمان عادا إلى الحلبة بعد استراحة قصيرة من أجل جولة أخيرة... ونهاية...

تقدم الديك ذو الذيل الأحمر نحو غريمه وانقض عليه ينقر وجهه ورقبته وبطنه حتى امتلأت الأرض بالدم الأحمر الدافئ، وكان «نواب» يقفز في مكانه مصفقا فرحا مع كل انقضاضة للديك المنتصر.

- «ياللجسارة! دع بطلى يقتل هذا الديك الضال!» وفي دقائق معدودة، كان الديك الآخر ملقى على الأرض ورأسه غارق في بركة من الدم.

استدار «نواب» مرة أخرى: «أين أنت يا «ذاكر»؟»

- «نعم سيدي»

- «هذا الديك يشوى في الكونياك لعشاء الليلة»

- «حاضر سيدي»

ثم صرف الخادِم وهو يحرق في الأرض المغطاة بالدم، وقال وهو ينفخ صدره ويلكز أصدقاءه بكوعه: «ألا تشبه معركة «بانيبات»* الأولى، عندما هزم جدي الأكبر الكفار في قتال

* عندما غزا «بابار» الأكبر المنطقة في سنة ١٥٢٦م وأزاح الأسرة الأفغانية (اللودي) وأسس الأسرة المغولية وثبت حكم الإسلام في الهند حتى نهاية أسرة المغول وسيطرة الحكم البريطاني في أوائل القرن التاسع عشر (المترجم).

- ضار؟ بعدها غنمنا الهندا! فأمنَ أصدقاؤه على كلامه. ثم خيم الصمت!
- بعد فترة قصيرة قالت «ريزيا» وهي تنهض من مقعدها وتنتجه نحو الأريكة: «لابد أن أخبرك بشيء يا والدي، إنه أمر يخصك» كان صوتها مرتفعا وبه نبرة إصرار...
- صاح «نواب» - «أهكذا يكون أسلوب مخاطبتك لأبيك؟ هل هي نبرات الديكة أم نبرات الدجاج تلك التي أسمعها في صوتك؟ لا أحب ذلك!»
- «دعني أقول لك أن هناك معركة أخرى تلوح في الأفق»، وكانت تجز على أسنانها «إنهم يطلبون دمك!» وهنا تدخل «بابار» الذي كان يقف إلى جوار شقيقته:
- «نعم يا أبي، وقد لايسفك الوقت!»
- قال «نواب»: «انظروا إلى هذين الطفلين.. إنهما يحاولان تخويفي..!»
- نظرت «ريزيا» بحدة إلى صديقي والدها مُلمحةً بأن من الأفضل أن يتركاها لشأن عائلي خاص، وعندما شعر «سمرخان» و«شودري سمر علي» بما هو متوقع غادرا المكان. وجد «نواب» نفسه بين ابنيه فصرخ فيهما: «والآن ماذا عندكما..؟ الخدم؟»
- قالت - «نعم يا أبي، إنهم ثائرون بسبب الإغتصاب..»
- «ولكن ألم أعرض عليهم عشرين ألفا..»
- «لن تشتريهم بنقودك»
- ارتجف صوته: - «وماذا يريدون إذن؟»
- «اعتذارك... أو دمك!»
- انفجر «نواب» ضاحكا! «تلك الحشرات... الديدان الزاحفة.... يطلبون من سليل الإمبراطور «شاه جيهان» أن يركع أمامهم! لن أحنى رأسي أمام أحد!»
- ثم تجمد صامتا مثبتا نظرتة على وجه ابنه وهو يسأل «ريزيا»:
- «ولكن... ألم يعتذر لهم بالفعل؟»
- «يقولون إن ذلك لا يكفي، يريدونك أنت..» كانت تتكلم وفي صوتها رنة لوم..
- «ولماذا أنا؟ وهل أنا الذي اغتصبت الفتاة؟»
- «لقد اغتصبت مشاعر الشرف لديهم يا أبي عندما أهنت عامل الحديقة بالأمس. نحاول

أن تلقي إليهم بالنقود كما يلقي بالعظمة للكلب.. إنك يمكن أن ترشو الشرطة، ولكن ليس أولئك الناس البسطاء.»

استشاط غضب «نواب» مرة أخرى وارتفع البلغم في حلقه:

— «هل وصل الأمر بك إلى هذا الحد؟ سوف أصدر أوامري بتجريدكم من ثيابهم جميعا وجلدكم بالسياط.. انتظري وسوف ترين... تدافعين عنهم أيتها البغي؟ اخرجي من هنا فوراً واسحبي معك هذا النغل..!»

انفجرت «ريزيا»: «يبدو أنك قد فقدت عقلك، أيها العجوز الخرف، الفاسق، الذي لم يترك امرأة.. حتى ابنته...»

صرخ «نواب»: «ليتني أستطيع أن ألطمك على وجهك لوقاحتك..»

— «ولماذا لا تحاول؟»

كان في صوتها ما أثار القلق بداخله. أرى يديه ترتعشان وشرابين رقبتة منتفخة وتنبض بقوة. سمعته يقول لنفسه: «يبدو أن شيئاً ما قد أصابها. هذه البنت تلقى في قلبي الرعب.. ولكن لا ينبغي أن أنهار هكذا... بسرعة!»

ثم واصل كلامه إليها: «أعرف أنك قد أصبحت بالسُّعار... هل لأنك لم تستطعي أن تحضري جنازة عشيقك؟»

قالت: «لا... كان يمكن أن أذهب بالرغم من أحداث الشغب لو أنني كنت أريد... ولكن حضور الجنازة ليس هو الطريقة الوحيدة لوداع روح مغادرة. لم أذهب لأنني أريد أن أنقذك من الموت، كان يمكن أن تكون هناك جنازة أخرى...»

قال والقلق يكسو جبينه: «وكيف عرفت ذلك كله؟»

— من «ممتاز»

استدار ناحية «بابار» الذي كان يتابع المباراة بينهما:

— «هل سمعت ذلك أنت أيضاً؟»

— «نعم يا أبي..»

— «إذن فقد اتفقتما عليّ، لماذا لا تقتلاني وحينئذ يمكن أن تقسما القصر بينكما؟!»

انفجرت فيه «ريزيا»: «صراع ديكة، احتفالات صاحبة مخمورة، نساء ورقص.. قصر هذا أم جحر أفاع؟! ليس أكثر من ذلك.. لا نريد شيئاً من ممتلكاتك، لماذا لا تعترف الآن بأن الكيل قد

طفح وأن الوقت قد حان...

وأكمل «نواب» عبارتها الأخيرة: «لتموت!»

في نفس اللحظة وقع بصره على بساط عراقي معلق على الحائط المواجه، عليه عاشقان يشربان النبيذ تحت شجرة، قال وهو ينقل بصره إلى الأرض الغارقة في الدم.. «تجاوز غريب للحياة والموت»، ثم حذق في صورة جده الأكبر المعلقة على الجدار الأيسر. الجد جالس على كرسي وثير وزوجته واقفة إلى جواره ترتدي الساري المطرز بالذهب.

قال نواب لنفسه: «ألا ينبغي أن يكون لي صورة كهذه؟ ولكن كم كنت أكره زوجتي! كما أن فكرة أن يقوم عشيق «ريزيا» برسمها في حد ذاتها فكرة قاتلة».

ألاحظ أن بقعة الدم التي تركتها الديكة على الأرضية قد أخذت نفس الشكل المخيف الذي كنت أراه في سقف غرفة المعيشة لدى. وفجأة ارتفع صوت ضوضاء في الخارج ويبدو أن الدهماء قد تجمعوا... خرجت بسرعة أستطلع الأمر. ترى هل بدأ التمرد؟ أمام ردهة الاستقبال كان هناك جماعة كبيرة من العاملين في «قصر جولشان»، رجال ونساء كلهم متذمرون مصممون على الانتقام. لاح بين الزحام رجلا نويان، أحدهما يمسك عتلة في يده والثاني فأسا. في ذلك المساء الصيفي، رأيت في ضوء القمر جمعا من وجوه برونزية، وعيونهم متجهة صوب ردهة القصر. لم يكن هناك أثر لـ «ذاكر محمد» في أي مكان، شعرت بالرهبة. كل همى هو سلامة «ريزيا»، ولكن ماذا يمكن أن تفعل روح من أجل إنقاذ شخص على قيد الحياة وماذا لو تحول هذا التمرد إلى شكل أكثر عنفا؟ ماذا لو حاول أحدهم التحرش بها؟ أسمع الآن طنيناً في الهواء... فهل هي روح أخرى؟ ومن تكون هذه المرة؟

رفرف نحوى صوت هادئ: «السلام عليك ياسيدي»

- «من أنت من فضلك؟»

- «لن تعرفني ياسيدي.. أنا «محبوبة»... أقصد أنني روحها... لقد كنت أنا المسؤولة عن رعاية النباتات والزهور الموجودة في شرفة السيدة «ريزيا».

- «هل أنت ابنة عامل الحديقة؟»

- «نعم ياسيدي»

- «كنت أتوقع أن ألقاك في مكان ما هنا..»

- «أنا أيضا سمعت بموتك ياسيدي، وكانت «ريزيا» تفكر فيك طوال اليوم»

- «... ولكن طريقة موتك كانت مؤلمة جدا... روتها لي ليلة أمس...»
- وهنا ارتفع الصوت غاضبا: «كانت جريمة بشعة، ومع ذلك ترك أهلي المغتصب يهرب، مجرد أنه أبدى إعتذاره... كما لو كان قد كسر قطعة من الصيني.. ألم يكن من الواجب القضاء على الأب والابن معا؟! كلاهما مجرم ياسيدي!»
- «أنا أفهم مشاعرك، ولكن أليس العفو من شيم الآلهة؟»
- «لا ياسيدي... الشر مجرم خطر، لو تركته يهرب فقد يفعلها مرة أخرى..»
- «أليس «نواب سليمان» هو أصل كل الشر هنا؟»
- «بلا...! هل تعرف أنه حاول أن يتحرش بابنته ذات مرة؟ ابنته «ريزيا». نعم. ولكنها صرخت في وجهه وطردته من الغرفة.. لقد شاهدت وسمعت كل شيء من الشرفة.»
- «أعرف شيئا من ذلك»
- «أنا أعتقد أن «ريزيا» كانت تحبك..»
- قلت وأنا أشعر بالحرج: «حسن! ولكن قل لي يا محبوبة:
- «هل يمكن أن يلحق أهلك بها أي أذى؟ إنها على أية حال أحد أفراد عائلة «نواب»!
- «لن يلمسها أحد.. الكل يعلم أنها طيبة وكانت تساعدهم جميعا. إنها الشيء الوحيد النادر وسط حثالة تلك العائلة.»
- «الحمد لله... لقد كنت خائفا!»
- «لا تخف ياسيدي، إنه «نواب» فقط.. يريدون أن يتخلصوا منه هذا المساء!»
- «لا يهم.. حتى لو نسفوا القصر وقتلوا «نواب»
- «ليتهم يتخلصون من «بابار» أيضا، ستكون تلك هي الطريقة الوحيدة لتصفية الأسرة..»
- «كنت أعتقد أن الإنسان يتناول هذه الأمور ببساطة بعد الموت... ولكن... اغتصاب في السادسة عشرة؟!»
- قالت «محبوبة»: «الروح ليس لها عمر، أنا أعتقد ذلك، وأشعر بأنني ناضجة مثل أي امرأة كبيرة، ما يعذبني حتى الآن هو أنه قد اغتصب جسدي وروحي... يالها من ذكرى مرعبة...! إنها شبح ثقيل يخيم على في كل مكان...»

ولكن، ألم تمر «ريزيا» بنفس جرح الإهانة والاغتصاب: والآن أدرك أن اثنين من نزلاء «قصر جولشان» كانا من ضحايا نفس الجريمة... فهل هو قصر مسكون بشيطان رجييم؟ شعرت برغبة شديدة في معرفة كيف حدث ذلك مع «محبوبة»... أليست ميزة الآن أن أعرف كل شيء من الضحية مباشرة؟ إن كل ما رآه الآخرون هو جسدها الميت.

الموت اغتصابا... تماما كما كانت نهاية حياتي... الموت غرقا!

سألتهما: «كيف حدث ما حدث يا «محبوبة»؟ وإذا كنت تشعرين بحرج ما لاداعي للكلام..»

- «أي حرج ياسيدي، الأرواح لا تشعر بشيء من ذلك... أنا لست جسدا... سأقول لك كل شيء ياسيدي». وبعد لحظات أخذت تضحكي:

- «كنا وقت الظهيرة تقريبا. وبينما كنت أقوم بتطهير الأرض من الحشائش الضارة خلف حجرة نوم «ريزيا» جثم شبح أمامي كأنه جذع شجرة مجتثة. استدرت خلفي لأجد «بابار» واقفا بجوار كتفي اليسري منحنيا على جسمي وعلى وجهه ابتسامة صفراء..

قال: «ألم يحن وقت الغداء؟» قلت: «مازال أماننا نصف ساعة ياسيدي».

قال: «لا بد أن يعرف أبي أن هنا من يعمل بجد وإخلاص، هل تعرفين يا «محبوبة» أنك متميزة جدا عن كل الذين يعملون هنا؟»

قلت: «شكرا ياسيدي!»

- «لا شكر يا عزيزتي، أنت تستحقين زيادة في راتبك».

«نظرت إليه ممتنة ثم واصلت اقتلاع الحشائش، راح يقترب مني أكثر وهو يتسهم، ثم داعب كتفي ومسد شعري وهو يهمس: «ألا تستحقين مكافأة خاصة على هذا الجمال أيضاً؟» كان يتكلم وهو يشير إلى عصفور على غصن قريب: «أنت مثل هذا الطائر الذهبي الجميل. قطيفة جسده في نعومة شعرك... احمر وجهي، «أرجوك ياسيدي لا تتصرف معي هكذا. لست سوى ابنة عامل بسيط وأعرف ماتود الوصول إليه، أنا لا أريد أي زيادة في أجري... وإذا قلت كلمة أخرى سأبلغ والدي..» كنت أشم رائحة الشراب المنبعثة من فمه وألمح وميضاً خبيثاً في عينيه.

قلت وأنا أنهض على قدمي: «أتركني أرجوك.. أريد أن أنتهي من عملي..»

«أي عمل يا حمامتي! لدي عمل آخر لك، عمل أكثر متعة من اقتلاع الحشائش، عمل ممتع لنا معا.. قررت على الفور أن أترك المكان، ولكن قبل أن أتحرك من مكاني كان قد وضع

يده اليمنى على فمي بقوة وجذبني باليسري خلف شجرة التين، حيث سد فمي بمنديل ونزع عني ملابسي. حاولت أن أصرخ ولكنه غلبني.

كان لعبه يسيل مثل كلب مسعور ويفرق وجهي كله. شعرت كأني أهوى في الماء بينما يداى ورجلاى يحاول أن تدفع جسدي إلى السطح... وأنا في هذه الحالة بين الوعي والغياب رأيت رئيس الحراس وهو ينتزع «بابار» من فوقي ويقول: لن نتركك تفر بجريمتك .. ولن نترك أباك!»

بعدها رحت في غيبوبة وعرفت أنني قد مت.

عندما سمعت طنيناً في الهواء، قلت، «لابد أن يكون طنين «ياما»

- «لا ياسيدي.. كان ذلك ملك الموت..»

- «هكذا؟ وكيف وجدته؟»

- «كان طيباً حلوا اللسان..»

- «طبعاً، فأنت صغيرة وبريئة.»

- «لا أعرف. قال شيئاً عن «الأعمال».. ولكن ماهو التناسخ ياسيدي؟»

- «وهل قال شيئاً عنه؟»

- «نعم..»

- «حسن! الأعمال هي «الكارما»، والكارما هي الميلاد مرة ثانية...»

- «هناك إذن حياة أخرى؟»

- «لماذا لا تنتظرين أسبوعين مثلاً لترين كيف ستسير الأمور؟ هذا ليس وقته..»

أنهيت كلامي معها وأنا لا أعرف لماذا قوّت كلماتها من اعتقادي في التناسخ. ثم أدركت أنني كنت مستغرقاً في الكلام مع «محبوبة» غافلاً عن كل شيء آخر...

وعندما نظرت حولي رأيت أن الزحام الذي كان في الحديقة قد تلاشي! أين ذهبوا؟ وأين بالذات الرجال المسلحان بالعتلة والفأس؟ ولماذا خيم الصمت على المكان؟ رأيت وجه القمر يحدق في قبة المبنى، عينان عاجيتان تدققان النظراً وأنف طويل مستدق الطرف، وفم مبتسم.. وجه يبدو عليه نفس التعبير المشؤوم الذي رأيته على تلة عثمان في ذلك المساء النكد..

وبينما أنا أرُفرف فوق «قصر جولشان» وجدت أن الجمع كان قد تحرك خلف غرفة

«نواب»، بينما الرجلان المسلحان يقفان في رباطة جأش ووعيد عند باب جانبي صغير. بعد دفعة قوية للباب خلعتة من مكانه، وصرخة مدوية هزت الهواء بشدة، اندفعت الجماعة إلى الردهة.. فر «نواب» مذعورا. وبينما كانت «ريزيا» متماسكة كان «بابار» يرتعد خوفا وهو يحاول الفرار نحو الباب الخارجي. صرخ فيه حامل الفأس: «الباب مغلق أيها الجرذ الجبان!» وكان يلوح بسلاحه في الهواء.. أما الرجل الذي كان يحمل العتلة فقال: «لن نقتلك أيها الفاسق، ولكن لا بد أن تنتظر قليلا لترى مشهدا قصيرا...»

«بابار» يخفي وراء أخته التي تحاول أن تحميه بيدها اليمنى، وعندما رأيت ذلك خشيت أن تستثير هذه الحركة الجمع الثائر ضدها.. كل ذلك يحدث بينما «نواب سليمان علي» الذاهل الصامت لا يعرف أنه المستهدف الحقيقي.. كان يحدث في الرجلين المسلحين، عندما صاح الرجل الذي يحمل العتلة: «والآن إلى هذا الحفل القصير الذي أعدناه لتسلية «نوابنا». ثم قال وهو يدفع بالسلاح الذي يحمله نحو «نواب» الذي كان يتراجع خوفا: «أتریده مثل حفل صراع الديكة ياسيدي؟»

وتحت الشرايا، كان «نواب» منكمشا يزداد شحوبا ورعبا، بينما الدوائر تحت عينيه وتغضن خديه تجعل وجهه يبدو كأنه قاع نهر جاف..

صاح رجل عجوز في ثياب رثة: «إن لم تقدم اعتذارك يا «نواب على بهادور» فسوف أنتقم لنفسي...»

نظر «نواب» إلى عامل الحديقة فوجد نفسه في مواجهة عينين حمراوين. أزعجته غطرسة صوت العامل ولكنه الآن لا حول له ولا قوة.. محاصر من كل اتجاه. استدار بوجهه إلى الحائط الأيسر وجالت عيناه بصورة جده الأكبر الجالس في خيلاء في حلقته اللامعة على كرسيه المذهب...

شعر «نواب» على الفور بوهج دم أسلافه يسرى في شرايينه وأضاء وجهه للحظة.. تدخلت «ريزيا»: «أرجوك يا أبي، ولم لا....» عينا «نواب» مازالتا على الصورة وكأنه لم يسمع ابنته بالمرة.. ثم قال: «وإن لم....»

كان ينظر إلى عيني عامل الحديقة كأن تلك النظرة الملكية يمكن أن تحرق الرجل.. خرج صوت من وسط الزحام: «سيمتزج إذن بعض الدم النبيل بدم الديكة!» وعندما تقدم ذلك المتكلم، كانت صدمة «نواب» شديدة أن يرى سكرتيه «ذاكر محمد». قال «نواب» وهو يطحن أسنانه: «خائن!»

- «كنت دائما تعاملني باحتقار يا «نواب صاحب»، وقد جاءت اللحظة التي أرى فيها رأسك في الأرض... ألا تود أن نقوم بشيه في الكونيك لعشاء كلبك المدلل؟»

- لن أخفض رأسي يا «ذاكر»

لم يكذب ينطق، حتى كان الرجل الذي يحمل الفأس قد جذبته نحو المنطقة الملوثة بالدماء وضربه على رأسه. صرخة وشهقة ثم اندفع الدم الحار من الجمجمة!

كانت «ريزيا» تتوسل: «أرجوكم!»

رد عليها الرجل الذي يحمل الفأس: «دعينا نهيئ المسألة ياسيدتي. سوف نشكرين لنا ذلك لأننا نظفنا القصر!»

ثم تقدم حامل العتلة ليقف بقدميه على صدر «نواب» ويغرس سلاحه في رثيه... ثم دفقة أخرى من الدم ليقع «بابار» مغشيا عليه خلف «ريزيا».

كان صوت عامل الحديقة يدوي تحت القبة: «يبدو أن المعتصب قد قضى نجه أيضا!»

عندما انصرف الجمع يتقدمه القاتلان، كانت «ريزيا» تنظر إلى جسد أبيها الغارق في دمه، ثم تقدمت نحو الأريكة التي كان يراقب منها صراع الديكة منذ دقائق قليلة، وجذبت الغطاء فوق الجسد... في نفس الوقت كان «بابار» قد أفاق فتماثل على قدميه ببطء ليرى أخته راكعة في خشوع تصلي إلى جوار الجثة...

- «ارحمه يارب... غفرانك ورضاك.. هذا كل ما يحتاجه الآن.»

. وهنا تذكرتُ بعض عبارات من مسرحية كنت قد شاهدتها في الصيف الماضي في «نادي النظام»:

«اللعة تتكاثر في الظلام .

تتبع منطقتها الخاص،

تختار لحظتها المناسبة

لكي تدفعك نحو الاستسلام..

ودائما تنكر الكفارة..»

وقبل أن أغادر الردهة نظرت إلى بركة الدم حول جسد «نواب». كانت قد تجلطت واتخذت شكلا.. كانت في البداية تشبه «البازيليسق»، ذلك الحيوان الخرافي الزاحف الذي

يحمل وجهه ضفدعة ومخالب نسر وذيل يتلوى مثل ذيل التمساح..

بعد ذلك اتخذت شكلا آخر تماما يشبه تلك البقعة الرطبة في سقف غرفة نومى .

عندما خرجت من الردهة رأيت القمر....

عيناه جليد مخيف، أذناه الكبيرتان تتدليان في كسل.. ذقنه مقوسة مثل سيف أعجف،
وابتسامة محنطة على وجهه كأنها تحتقر كل مايجري على الأرض من أحداث مؤسفة وتسخر

منه..

- ١٠ -

كنت قلقا على «ريزيا»، بالرغم من أن «محبوبة» أكدت أنها لن يصيبها مكروه. ثم ماذا لو حاول القتل وهم في ذروة غضبهم أن يقتلوا «بابار» أيضا؟ أليس هو الذكر الوحيد الباقي من نسل «علي»؟ كما أن «ريزيا» لو حاولت أن تتدخل لحماية شقيقها فقد تواجه بعض المتاعب.. لذلك كله قررت أن أعود إلى الردهة. رأيت «بابار» يقف إلى جوار شقيقته ممتنع الوجه شاحب الشفتين بينما هي مستغرقة في الصلاة، راکعة إلى جوار جثة أبيها فاردة كفيها أمامها تدعو الله طالبة رحمته.

سمعت «بابار» يلعنها في سره: «لماذا لاتنهي صلاتها بسرعة، لو بقيت هكذا أكثر من ذلك فلا بد أن أهرب، لن يمسوها بسوء، فأولئك الجبناء يطلبون رأسي أنا.. يقولون أنني وقد اعتذرت لهم لن يمسوني بسوء.. ولكن متى كان لهم كلمة؟ اسرعي يا «ريزيا» أرجوك...» كان يرتعد وهو يفرك يديه يائسا بئسا..

عندما انتهت «ريزيا» من صلاتها قفز ليمسك بيدها:

- «هيا بنا، هذا المكان غارق في الدماء، يجب أن نخفى بعيدا هذه الليلة على الأقل.»

قالت:

- «وأين نذهب؟»

- «إلى أي مكان»

- «أنت خائف لدرجة الموت... أليس كذلك؟»

- «بلا»

- «لكنهم لن يؤذوك»

- «ومن يضمن ذلك؟»

صمت بينهما. جبهته تملؤها التجاعيد، سبابته اليمنى على شفتيه ويتحسس حلقة بإبهامه.

- «يمكن أن أطلب من أحد الأصدقاء أن يأوينا هذه الليلة... زميل دراسة في الكلية... هيا بنا!»

- «ولكنك لاتستطيع أن تطرق باب أحد في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل..»

- «سأتصل تليفونيا من الطريق..»

عينها تمسحان وجه شقيقها، شاحب حتى الموت وشفته ترتعشان. قالت لنفسها: «إن لم تغادر القصر فوراً فقد يسقط ميتا في أي لحظة. لكن... ألا يشبه والده؟ الجبهة العريضة... العينان الزرقاوان العميقتان.. نفس الفم الشهواني الأحمر.. والغريب أنه يثير في نفسي الامتعاض أيضا..»

ثم قالت بلامبالاة: «هيا إذن بنا..! إلى أي مكان..»

- «أنت خائفة؟»

- «بلا... متواطئة!»

نظر إليها مرتابا كأنها شريك في جريمة القتل، وتحرك نحو الباب الخلفي وهو يشير إليها أن تتبعه. كانت سيارته المرسيدس تقف بالقرب من الرواق فدفعها في المقعد الأمامي وقفز إلى جوارها وأدار المحرك. عندما ضغطت قدمه على بدال السرعة أحدثت السيارة صوتا حادا فزمجر غاضبا...

«أولئك الأفيال الأغبياء! لماذا لا يصنعون سيارات صامئة!»

قالت - «لكي تناسب اللصوص؟»

- «أسرعى يا «ريزيا»، ماذا بك؟»

- «لا شيء»

- «أعجب لهدوء أعصابك.. هل كانت صلاتك نوعا من التمثيل؟»

- «لن أعلق على ما تقول...»

لم يكن هناك أحد من الحراس عند البوابة الرئيسية، وهذا أمر غريب. وكان «بابار» وهو يقود سيارته بسرعة خارجا من القصر يقول لنفسه: «ربما قد تجمعوا في مكان آخر يرسمون خطة جديدة.. على أية حال سنكون بعيدين عن أيديهم حالا..»

راحت السيارة تنهب الطريق عند «نامبالي» ثم انعطفت على طريق «شيراج» ثم على طريق «عابد» ثم إلى «تولجا بهافن» وكادت أن تنقلب وهي تنحرف بشدة عند إشارة المرور. قالت

«ريزيا» محتدة: «على مهلك! لا أحد يطاردك.. هل أنت متوتر الأعصاب لهذه الدرجة؟»

صوب إليها نظرة طويلة... باردة.. ثم أوقف السيارة بعد قليل وسار نحو كابينة تليفون على جانب الطريق، أما أنا ففضلت البقاء مع «ريزيا».

كانت تفكر «ليتي نصحته بالذهاب إلى أحد الفنادق... ولكن ذلك كان يمكن أن يكشف أمرنا. آه لو أن «رامي» كان على قيد الحياة... كان يمكن أن أطلب منه تدبير غرفة لنا في «نادي النظام»... كم أفقده اليوم!»

بعد دقائق قليلة خرج «بابار» من كابينة التليفون تبدو عليه السعادة، قال وهو يتخذ مكانه في السيارة: كل شيء تمام... رغم أنني رويت لها معظم ماحداث... ولكن ليس كل شيء بالطبع! وهي التي عرضت أن تستضيفنا الليلة... كم هو لطيف منها!»

سألته «ريزيا» مندهشة: «فتاة؟»

— «نعم! زميلتي في الكلية... ألم أخبرك؟ تعيش في «بركات بويرا»... بالقرب من هنا..»

— «كنت تقصد بالصديق والزميل أنه فتاة؟»

— «وماذا في ذلك؟»

— «لا شيء..»

— «ولكنها ليست واحدة منهن! هي فتاة ذكية.. وفنانة.. رغم أنها جميلة!»

عندما أوقف السيارة أمام منزل صغير قرأت اللافتة على بابه:

بريج بهادور ساسترى

طبيب

سألته «ريزيا»: «ابنة طبيب؟»

— «نعم»

— «عليك إذن أن تطلب منه في البداية بعض المهدئات..

حملق «بابار» في أخته: «وماذا في ذلك؟»

كانت سيارة «فيات» صغيرة تقف بالقرب من الرواق المحاط بأشجار جوز الهند، وقبل أن يدق «بابار» الجرس رأيت فتاة صغيرة تخرج من المنزل... بمجرد أن ظهرت في ضوء الكشافات

جفلت. «براتيما» تقف أمامي مشعة بكل جمالها وروعته. كان ذلك هو لقاءنا الثاني في خلال يوم واحد.

قالت لـ «بابار» وهي تشير بيدها: «تفضل! ويمكنك أن تترك سيارتك هنا..»
 - «أختي «ريزيا».. «براتيما» ساستري».

قالت براتيما:

- «أسفت غاية الأسف لتلك المأساة، لا بد أنكما في غاية الحزن»

قالت «ريزيا»:

- «كان أمرا فظيعا.. شكرا على أية حال على كرم ضيافتك!»

- «على الرحب والسعة!»

قال «بابار»:

- «لم أفكر في أحد سواك يا «براتيما».. شكرا.. ألف شكر..»

- «وأنا سعيدة لأنك فكرت بي!»

قادت «براتيما» ضيوفها إلى غرفة الطعام حيث قدمتهما لوالديها.. كانت الأسرة بالفعل جالسة على طاولة العشاء ففهمت أن مكالمة «بابار» لا بد أن تكون قد فاجأتهم أثناء عشاءهم المتأخر..

وبعد أن دعوا «بابار» وشقيقته لمشاركتهم، وبعد عبارات العزاء المألوفة قال والد «براتيما»:
 «ألا ينبغي إبلاغ الشرطة فورا؟ هذا هو الإجراء القانوني. ويمكن الاتصال بمركز العمليات من هنا إن شئتم.»

قالت «ريزيا»:

- «لقد فكرت في ذلك بالفعل، ولكن ربما فعلنا ذلك في الصباح. نحن الآن في غاية الاضطراب!»

كانت «ريزيا» تفكر: «آه لو علموا أن الشرطة لا بد أن يسعدها ذلك لكي يحصلوا منا على المزيد من المال!»

قالت «براتيما»: «دعهم أولا يتناولون شيئا من الطعام.. لا بد أنهم يتضورون جوعا! مساكين!»

ثم أشارت إلى مابدا أنه بقايا ديك رومي وقالت:

– «ما رأيكما في شريحة من ذلك؟»

اضطربت «ريزيا»: «يا إلهي! إنه يشبه الديك الذي كان والدي يريده مشويا بالكونياك.. ذكرى مرعبة للصراع الدموي.. لو لمست يدي فقد أتقيأ..!»

ثم استدارت نحو أم «پراتيما» وهي تقول: شكرا.. لانشر أننا في حاجة لتناول شيء.. قد يكفي فنجان من القهوة. شعر «بابار» بأن كبرياءه قد جرح. «لماذا تتكلم نيابه عني؟» «كان بودي أن ألتهمه كله»

بعد تناول القهوة قامت «پراتيما» لتقول لضييفها: «دعوني أصحبكما إلى غرف النوم. قادت «بابار» إلى غرفة في الركن بعد الشرفة الخلفية وهي تقول: هذه غرفة أخي، وهو بالمصادفة موجود في الخارج... يمكن أن تستخدم بعض ملابس لل نوم... وأي شيء تحتاجه...»

ولكنها عندما استدارت نحو «ريزيا»، سمعت «بابار» يقول لنفسه:

«ولست في حاجة إلى ملابس شقيقك يا حبيبتني، ليتك تعيريني بعض ملابسك لكي أتحسس فيها ثنايا جسدك... وإن استطعت أن تأتيني ليلا فقد لا نحتاج إلى ملابس بالمره.. يكفيني عطر جسدك!.. يا إلهي! لقد نجحت في إزالة كل مخاوفي!»

ثم قال لها وهو يتباطئ عند الباب: «شكراً»

وسمعها «بابار» وهي تقول لشقيقته: «وهذه غرفة نومك.. إنها غرفتي ولكني يمكن أن أنام الليلة في مكتب والدي في الجانب الآخر من الشرفة.»

قالت «ريزيا»: أشعر بأنني قد سببت لك ارتباكاً!

– «أبدا.. بالمره.. فمكتب والدي مريح تماما مثل غرفة النوم، توجد به أريكة كبيرة وطاولات صغيرة وما يمكن أن أقرأه قبل النوم.»

وأنا أحوم في غرفة نوم «پراتيما» التي أصبحت غرفة «ريزيا» هذه الليلة وجدها تشبه الاستوديو. مصباح جانبي مرتفع يشبه حامل الكشاف. على الحائط الأيسر مستنسخ من إحدى أعمال «رافائيل» وقناع من الورق المقوى يستخدمه الراقصون، وعلى قواعد النوافذ خلف السرير أجراس من الحجر. ثم مفاجأة أخرى. على الحائط المواجه لسرير «ريزيا» لوحة كبيرة مرسومة بالألوان المائية أظهر فيها بين مجموعة من الشبان والفتيات عيونهم جميعا مثبتة على وجهي وكأنهم يحاولون الإمساك بكل كلمة أقولها. أبدو في اللوحة بشعري مفروقا عند المنتصف وشعيرات بيضاء تغطي الفودين.. وبين المتحلقين حولي استطعت أن أتعرف على وجه جميل.. هو وجه «پراتيما»... الشفتان نصف منفرجتين كأنهما تنتظران قبلة... عندما وقعت عينا «ريزيا»

على اللوحة هتفت :

- « هذا رام كريشنا! »

خيم صمت قصير، عينا كل منهما تفتش وجه الأخرى. قالت «پراتيما» :

- « أَلَمْ يكن فنانا عظيما ؟! »

قالت «ريزيا» - و«إنسانا رائعا كذلك.»

- « يبدو أنك كنت تعرفينه شخصيا »

- « أَلَمْ يكن شخصية عامة ؟ »

قالت «پراتيما» وعيناها تفتشان وجه «ريزيا» :

- « بالتأكيد، ولكن أقصد أنك ربما كنت تعرفينه! »

فكرت «پراتيما» :

- « من المؤكد أن هناك شيئا ما، وإلا لماذا تقول أنه كان إنسانا رائعا؟. رائع؟ إلى أي مدى كان ذلك؟ »

كان تيار أفكار «ريزيا» ينساب في نفس الاتجاه: « من المؤكد أن هذه الفتاة كان لها أكثر من اندفاع تلميذة نحو «رامي». انظري كيف تتحدق في. إنها لاتعرف أن كلمة واحدة مني قد تخطمها، ولكني لن أفعل.. فقد كانت كريمة معنا هذا المساء.»

قالت «ريزيا» لـ«پراتيما» :

- « نعم، قابلته عدة مرات في معارض فنية وحفلات اجتماعية.. وأنت.. كيف عرفته؟ »

تنهدت «پراتيما» : « كان لقاء قصيرا، التقيته مرة في الحفل السنوي لجمعية الفنانين الشبان.. ولم أره بعد ذلك.»

- « تقصدين هذه اللوحة المائية؟ »

- « نعم »

- « رسمتها من الذاكرة؟ »

- « نعم »

- «جميلة .. ويبدو أنك استطعت أن تلتقطي جوهر الرجل!»

قالت «پراتيما» ووجهها يحمر خجلا: «شكرا!»

- «ليتته كان معنا هذه اللية، لاشك أنه كان سيعجب بما رسمت»

- «كان الحلم تحقق!»

هذه المرة ران الصمت طويلا حيث كانت كل منهما تحاول أن تستحضر صورتني بعين الخيال.

ثم قالت «ريزيا» همسا: «أريد أن أسألك عن شيء..»

- «ماذا؟»

- «هل كنت على علاقة حب مع «رام كريشنا؟»

وعلى الفور جاءت الإجابة: «ومازلت!»

ثم أضافت بينها وبين نفسها: «هكذا انتزعتها مني.. ولكن ما الداعي لأن أكذب؟ لن يؤلني أن تكون هذه المرأة أيضا تحبه. وما الداعي لأن تحتكر امرأة واحدة رجلا؟! ألم يكن ذلك مافكرت فيه ذلك المساء في الحفل؟ ما كان يهمني لو أن «رام» أحاطت به دستة من النساء. مشكلته وليست مشكلتي!»

لم يكن هناك رد مباشر من «ريزيا» التي ظلت تتحدق في وجه «پراتيما». ولكنها كانت تفكر بينها وبين نفسها:

«آه لقد خرجت به، ولكنني لست غيورة من هذه الفتاة الصغيرة. بالعكس... أنا أشفق عليها.. لو قلت لها الحقيقة لانتفضت السجادة من على الأرض وعرققتها!»

قالت «ريزيا» «ولكنه ميت الآن!»

- «وما الفرق؟ أنا أشعر بوجوده طول الوقت»

- «إنه هنا... الآن...»

- «ماذا؟»

- «ربما أبدو حمقاء!»

قالت «ريزيا»: «لا... أنا أفهم ما تقصدين.. هل ذهبت إلى جنازته؟»

قالت «پراتيما»: «ذهبت إلى منزله هذا الصباح، وكان عليّ أن أحضر جنازة أخرى ولكن لم يحدث.. كان اليوم كله جنازات...»

سألته «ريزيا»: «تقصدين أعمال الشغب في المدينة؟ كان هناك كذلك العريس الذي لقي حتفه في الموكب... قرأت عن الحادث في صحيفة المساء...»

- «لأليت ديوب»

- «كنت تعرفينه؟»

قالت «پراتيما»: «تلك قصة أخرى.»

وأخذت شهيقا عميقا.. كان «لأليت» يحبني، كتب لي رسائل حب جميلة، كان يرى النجوم في عيني والقمر في وجهي والحمائم في يدي ويسمع موسيقى الكون في وقع خطاي! وذات مساء ظهر في حفل موسيقى مع فتاة! جيثاره وصوتها! بعد ذلك توقف عن لقائي.. الشيء الذي سمعته عنه بعد ذلك هو خبر خطوبتهما.. وهكذا ترين.. كان شابا عجولا لم يكبر بعد على مراهقته..»

قالت «ريزيا»: «أرى أنك كنت أكثر نضجا منه.»

- «لا..... لم أقصد ذلك..»

ثم قالت وهي متجهة نحو الباب:

- «ولكن كيف تركت نفسي أثّر هكذا، وأنت في حاجة للراحة بعد عناء هذا اليوم الطويل!؟»

- «لا «ياپراتيما» أنت لاتقدرين مدى سعادتي في الكلام معك.. هذا بالضبط نوع الشراب الذي كنت في حاجة إليه الليلة....»

- «شكرا! ولكن هل ذهبت إلى جنازة «رام»؟»

- «لا!»

بدت الدهشة على وجه «پراتيما»: «هذه امرأة تدعى أنها تعرفه جيدا ومع ذلك لا.....»

فكرت «ريزيا»: «هكذا!.. ألم أسترخصها بنصف الحقيقة؟ كم هي مريحة أنصاف الحقائق أحيانا. ثم ألا تستحق ذلك؟ ليس من أجل كرم ضيافتها فقط.. بل لأنها خففت عنا عناء ذلك المساء الكثيب..»

ثم استأنفت «ريزيا» كلامها إليها:

«انظري يا «پراتيما»، بمجرد موت الإنسان ينتهى الأمر. لابد أن يعود المرء إلى الأحياء...
الحي أبقى من الميت.»

— «هل تشعرين بنفس الشيء نحو والدك؟»

— «ولم لا؟»

— «أفهم الأمر.. على أية حال لابد أن أتركك لتستريحى الآن!»

سمعتها تفكر لنفسها وهي منصرفة:

«إذا كان المرء لا يمكن أن يؤمن بالجهول، بغير ما يراه، فمعنى ذلك أنه لا وجود لإله.
وهاهى عائلة على... الضحلة تماما....»

كنت على وشك أن أطير عائدا إلى البيت سعيدا لأنني مازلت محبوبا ومفتقدا، عندما
رأيت «بابار» خارجا من غرفته ومتجها بهدوء نحو غرفة «پراتيما».. أقصد نحو مكتب والدها.
وبعد تردد قصير أمام الباب أدار المقبض بيده اليمنى وتسلل على أطراف قدميه. ماذا في ذهنه
ياترى؟

عندما تبعته رأيت «پراتيما» مستلقية على الأريكة تغالب النعاس وفي يدها كتاب.. وفي
الضوء الخافت لشمعة قرنقلية اللون، يتراقص في مزهرية من زجاج شفاف كانت جميلة نائمة
تشبه ملاكا تحيط به هالته المقدسة على سرير من سحب.

ولللحظات، كانت عينا «بابار» تمسحان وجهها الساطع في ضوء الشمعة، ثم جلس ساكنا
بجوار الأريكة بالقرب من قدميها.

— «پراتيما».

كانت غارقة في النوم، تتنفس في هدوء..

— «پراتيما».. كرر ندائه وهو يلمس قدمها اليسرى التي تبدو كأنها منفصلة عن جسدها
طائرا حيا طليقا.. وفجأة انتبهت خائفة.

— «من؟»

— «أنا»

كانت قد عرفت صوته، طردت النوم من عينيها وأطفأت المصباح الموجود بجوار السرير،

وانكمشت متباعدة عن ذلك المتطفل

- «ماذا تفعل هنا؟»

عينها تقدحان بالشرر ووجهها غاضب، وكان «بابار» يشعر بالاضطراب.

- «أسف لهذا التطفل، سمعكما تتحدثان طويلا في الغرفة المجاورة.»

- «وهل كنت تتنصت علينا أيضا؟»

- «لا... ولكن دعيني أشرح لك الأمر.. لقد سمعت وقع خطواتك في الشرفة، فتصورت أنك لم تنامي بعد.»

قالت بصرامة: «عم تتحدث يا «بابار»، اخرج من هنا فوراً وإلا...»

- «أرجوك! اعطني دقيقة واحد، أود أن أقول شيئاً..»

- «قله بسرعة وانصرف..»

- «كنت أشعر بالوحدة الشديدة في غرفتي، كان كل شيء يبدو مخيفاً ففكرت أن أجيء لكى أتكلم معك قليلاً.. هذا كل ما في الأمر.»

صرخت فيه: «هل جئتي؟ لماذا لا تذهب لتتكلّم مع أختك؟. فلربما كانت تشعر بالوحدة هي الأخرى..»

- «أعتقد أنها نامت..»

- «وأننا أيضاً دعني أقول لك شيئاً... عندما اتصلت بي تليفونيا كان ينبغي أن أقول «لا» فوراً.. أنا أعرفك جيداً، كل من في الكلية يعرفك.. ولكنك كنت مع أختك وفي ظرف صعب.. ظرف مأسوي.. لم أجرؤ على أن أنخذلك ولذا اقنعت والدي بأن يسمح لك بالجمع.. على أية حال.. هل تغادر الغرفة فوراً بعد أن قلت مالدريك؟»

- ولكنني لم أقله بعد «ياپراتيما»، شيء أكتمه في صدري وكنت أريد أن أبوح به طوال الشهور الماضية..»

- «وماهو...؟»

- «أنا أحبك.. وهكذا كنت دائماً..»

انفجرت «پراتيما» في الضحك..

– «ولكنني لا أحب الأطفال.. وكفي كلاما من هذا النوع. ولو بقيت هنا دقيقة أكثر من ذلك فسوف أطردك من المنزل... أرجوك لا تستفزني!»

كانت عيناه وهو ينهض مازالان معلقتان بوجهها، وسمعته يقول لنفسه: «ياللهذه النار! لو لم يكن منزلها لقفزت إلى فراشها حتى ولو صرخت أو استغاثت.. هكذا هن دائما.. ثم ألا يضاعف ذلك من الإثارة؟! ليتها قامت عارية من فراشها لتطردني من المنزل...»

ثم قال بضعف: «سوف أخرج.. ولكنني أقولها مرة أخرى.... أحبك يا «پراتيما»....»

– «اذهب وقل ذلك لأختك.. ربما كانت تعرف عن الحب أكثر مما تعرف.»

وبينما هو يتجه صوب الباب نظر خلفه وقال: «إن الجمال لا بد أن يكون معطاء وليس شحيحا... سوف أحسد دائما الرجل الذي تحبين وأغار منه... ليتني أقابله..»

– «ربما لن تراه أبدا... والآن.. هل....»

بعد أن خرج إلى الشرفة كان يفكر: «كنت جباناً، أفلتُ لحظة ذهبية من يدي... أراهن أنها كانت سوف تستمتع بذلك... بالضبط كما حدث مع «محبوبة»... حتى ولو دفع والذي حياته ثمناً..»

لم أكن أعرف أن هناك مفاجأة أخرى في انتظاري. وجدته يتجه نحو غرفة «ريزيا» بدل أن يعود إلى غرفة نومه، وهنا أيضا تردد لحظة أمام الباب كأنه يفكر في أمر يشغله... ثم تسلسل إلى الداخل وأنا أتبعه...

من تنفسها العميق أرى أنها غارقة في النوم. كم تمنيت أن أعود جسدا لأنزلق إلى جوارها في الفراش. بعد أن استمعت إلى أفكارها وهي تتحدث طويلا مع «پراتيما» شعرت بشيء ما يلمسني من الداخل. ليتني أستطيع أن أستمع إلى أحلامها أيضا.. ولكنها غارقة في نوم بلا أحلام. مسكينة! كان المساء الأخير مرعبا بالنسبة لها...

وأنا وسط هذه الدوامة من الأفكار نسيت وجود «بابار» في الغرفة، ثم لاحظت أنه بعد أن تحسس طريقه في الظلام وجد أمامه مقعدا فجلس فيه..

ثم تردد همسه في الغرفة الساكنة: «ريزيا!»

ترى ماذا يريد هذه المرة؟ فورا، أحدث السرير صوتا وامتدت يد «ريزيا» تبحث عن المصباح الخشبي المجاور.. وفي الضوء المباغت، بدت عليها الدهشة.

– أنت يا «بابار»؟

- عفوا يا «ريزيا»

- «كيف جئت إلى هنا؟»

قال متلعثما: «لم يكن الباب مغلقا بالمفتاح، فتصورت أن بإمكانني أن أدخل.. لم أستطع أن أنام..»

رمشت عينها عندما وقعت على اللوحة المائية المعلقة أمامها.. وسمعتها تقول لنفسها:

- حسن يا «رامي»، لقد نمت جيدا لأنني أعرف أنك معي هنا. أمر غريب! أنت على الحائط وأنا هنا راقدة على السرير... بعيدة عنك جدا... إلا أننا كنا معا هنا في الغرفة.. أليس كذلك؟

ثم سألت أخاها: «هل تفكر في أييك؟»

- «نعم.. هذا جزء...»

- «ولكن الأمر انتهى، لا بد أن تسير الأمور وتفكر في ترتيب كل شيء..»

ثم أضافت بعد لحظات: «الآن.. وبما أنك ستصبح رجل البيت فلا بد أن تحترم نفسك! أنفهم؟»

- «ولكن هل انتهى الأمر فعلا؟»

- «هل أنت قلق بسبب عامل الحديقة والآخرين؟»

- «ليس بالضبط، بل هناك شيء آخر...»

ثم استطرد بعد أن نظر نحو الأجراس الحجرية فوق قاعدة الشباك:

«لقد تورطت في خطأ منذ دقائق...»

- «ماذا؟»

- «دخلت غرفة نوم «پراتيما»، لم أكن أقصد أن... كنت أريد فقط أن أتحدث معها قليلا..»

- «تصرف غريب! تدخل غرفة نوم امرأة في الليل لكي تتحدث قليلا؟ ولكن «پراتيما» لا بد أن تفهم الأمر... بعد مساء مرعب كذلك لا بد أن يتصرف الإنسان هكذا..»

بعد قليل، تجهمت ملامحها وكأن فكرة أخرى قد طرأت عليها، ثم سمعتها تفكر: «ربما كان يكذب، «بابار» ليس بهذه البراءة. ربما استيقظ فيه المغتصب مرة أخرى. وفي هذه الحالة لا بد أن يعرف أن «پراتيما» ليست «محبوبة»... «پراتيما» عقلها ناضج بينما هو لم يتخط مرحلة المراهقة. كما أن هذا الانتهاك الفظيع لواجب الضيافة يعتبر خيانة كبيرة. أهكذا بسرعة بعد

مقتل والده؟ هل فقد رشده؟»

ثم قالت له بحدة:

- «بابار» قل الحقيقة!

- «ألا تصدقيني يا «ريزيا»؟ ألا تثقين بكلامي؟»

- «كلامك؟ على أية حال، ما حدث حدث بينك وبين زميلتك في الكلية...

لكن لماذا جئت إلى هنا، لتتكلم أيضا؟ أهذا وقت مناسب؟ نحن في منتصف الليل تقريبا ولدنا أشياء كثيرة لابد أن ننجزها في الصباح.. لا أثق أنهم حتى سوف يتركونا ندفن والدنا بطريقة كريمة. الأفضل أن تذهب إلى غرفتك وتحاول أن تنام.»

ولكن «بابار» هز رأسه وظل جالسا في مكانه. عيناه تجولان في اللاشيء وسمعه يقول لنفسه: «ليتني أستطيع أن أظاهر بالدوار، حينئذ يمكنها أن تشرح الأمر لـ «پراتيما» وأبقى هنا أيضا. كلهن سواء.. يغضبن بسرعة، لا يثقن بأحد.. متمنعات.. لا وسيلة للانتصار عليهن إلا بالحيلة.. أو عنوة.. انظر إلى «ريزيا» الآن.. لقد صنع غضبها شيئا بالنسبة لي. هل أنا بالفعل فاقد السيطرة على نفسي؟ هذان الكتفان العاريان المستديران... الناعمان... هذا الوجه الذي يشبه فلقة القمر... لابد أن يكون «رام كريشنا» قد ذاق كل جزء من ذلك الجسد الشهى! فتاة أحلام مصورا! ولكن لو ذاق شخص جمال شقيقته يصبح الأمر سفاح قربي أو غشيان محارم!

لا أعرف من الذي زرع تلك المحرمات في العقل البشري!

نظرت إليه «ريزيا» غاضبة:

- «لماذا لاتنصرف يا «بابار»؟ لماذا تتحدق فيّ هكذا.. أنا لا أحب ذلك!»

- «وماذا في ذلك؟»

- «أرى فيك شيئا من أبيك»

- «حسن! أأنت ابن أبي؟»

- «أتمنى أن تكون... ولكن في النظرات فقط..»

- «دعي عنك ذلك يا أختي..»

- «إن لم تخرج الآن سأصرخ بصوت عال...»

- «ولم لا؟»

.... ولكنه اتجه صوب الباب وخرج في الحال.

بعد أن صدمتني أحداث «قصر جولشان» ومنزل «پراتيما»، كنت مثل الخفاش الذي وجد نفسه محبوسا في غرفة شديدة الإضاءة، فراح يرفرف متخبطا بين كورنيش السقف والعوارض وقاعدة النافذة.. لا يعرف أين يستقر!

وعندما طرت محلقا في الهواء كانت «حيدر أباد» - مسقط رأسي - تلمع مثل امرأة مزدانة بالجواهر... الشوارع غارقة في أضواء النيون والإشارات المرورية تضيء وتنطفئ. ارتفعت لكي أرى المدينة كلها من منطقة «سيد علي شابوترا» القديمة خلف «شارمينار» حتى مدرج الطائرات الساطع في مطار «بيجومبت». كان سد «تانك» الممتد فوق بحيرة «حسين ساجار» فاصلا بين «حيدر أباد» و«اسكندر أباد» يلمع كأنه شريط من حرير. حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل كان هناك من يتجولون على الممرات الجانبية.. مثل حيوانات الحديقة التي تخرج من حظائرها الباردة للاستدفاء بحرارة النهار، جماعات كثيرة من البشر متجمعون حول محلات الأرصفة يتناولون الأطعمة الشعبية التي تقدم إليهم على أوراق شجر الموز، أو يشربون العصائر المثلجة.

لحقت فوق لوحة خشبية خلف أحد الأكشاك ملصقين سينمائيين، «فصل في الجحيم» و«شهر العسل»، وكنت سعيدا بهما فرفرفت مقتربا من الجسر لأنظر إلى البحيرة جيدا. كانت المياه الجارية تخبلي لبي دائما في البحار والأنهار... ولكن ليس في البرك والمستنقعات التي تشبه الطيور الحبيسة في الأقفاص.. مستسلمة ومقموعة.

كان نهر «حسين ساجر» قد عاد حيا بمجى الرياح الموسمية وكانت مياهه تهسهس وتدوم كأنها مياه بحر متلاطم، كما كانت انعكاسات مصابيح أعمدة الإنارة حول حدوده تلمع تحت الماء كأنها موكب لحملة الشعل موهذا أنا أوأصل مراقبة المنظر وأشعر بالهدوء بعد هذا اليوم المليء بالكوارث..

أرى رجلا عجوزا يجلس وحيدا على مقعد في ركن بعيد، يمسك بعصاه ذات المقبض العاجي بين رجليه متشبثا بها، في وجهه شيء ما يحيرني.. نظرة عميقة، عيناه، طرف أنفه، شفته العليا.. كلها مركزة على فكرة بعيدة غامضة، وعلى مجياه ترتعش ابتسامة سخرية مبهمة. كان الرجل بين لحظة وأخرى يدير مقبض عصاه أو يدكها في الأرض دكا كأنه يريد أن يحدد فكرة بعينها ويقبض عليها بيقينه. آه! لو كنت حيا، لما ترددت لحظة في تصوير ذلك الحكيم

العجوز لكي أمسك بتلك الابتسامة الساخرة المألوفة.

وعندما اقتربت منه سمعته يقول لنفسه «كفى.. كفى.. لا ينبغي أن يتمادي المرء في كرم الضيافة، الإنسان العجوز غريب، بوصلة مكسورة، يحيا في منزله وغير مرغوب فيه ولا يهتم به أحد.. حان وقت الرحيل. لقد سمعته «نافثيت» وكذلك «برابها». أعماله لا بد أن تكون هي السبب، ليتني عانيت بأبي في شيخوخته.. لقد تركته يذوي وإن كنت لم أسيء معاملته».

«حسن! بعض الناس ينجح عن طريق الموت. أولئك الذين يمضون مدحجين بقسوتهم فوق جثث القتلى نحو مجدهم الخاص. مثل ابني. لقد أصابني الاضطراب هذا الصباح عندما وجدتته مبتهجا لموت «رام كريشنا». قلبه جلمود صخر. سمعته يقول لـ «برابها»: أنه - كرئيس جديد - سوف يعيد تشكيل مكتبه ويدعم سلطانه. إلى غير ذلك. ربما أعادوا ترتيب غرفتي أيضا بمجرد أن أذهب، وكلما أسرعوا في ذلك يكون من الأفضل».

«ليت الموت كان سهلا، أو بالإمكان الوصول إليه مثل الحصول على قطعة شيكولاته أو حجز تذكرة للمسرح.. مسرح المجهول. ولكن.. حتى هنا أيضا يتدخل القانون عندما يقضى بأن الانتحار عمل غير قانوني وبالتالي فهو يستحق العقاب مثل أي جريمة أخرى..»

«يقول المجتمع «لا تفعلها»... مثلما يكتب الصيدلي بالخط الأحمر محذرا «خطر... يحفظ بعيدا عن متناول الأطفال».

«وفي النهاية يبقى للمرء شيء مثل هذه البحيرة أو مسار سكة حديد خاص، عندما لا تكون لديه قوة كافية لكي يتسلق برج الساعة أو نقودا كافية لكي يشتري جرعة زائدة من الحبوب المنومة».

هذا إذن والد خليفتي يفكر في الانتحار. وبينما دُفعتُ أنا دفعا لكي ألقى حتفي، هنا شخص يود أن يفعلها بنفسه، رغم أن «ياما» قد يدعي أن الرجل كان يحاول أن يقتل نفسه بناء على طلب منه.

ثم قام الرجل من مكانه وانحني إلى الأمام وراح يحدق في البحيرة. سمعته يقول لنفسه: «وهكذا سأهوى إلى الأعماق المليئة بالطين. سوف أدلى نفسي ممسكا بكديّة من العشب إلى أن تشدني المياه إلى أسفل. النهاية».

تملكني الخوف. ليتني أستطيع أن أنادى أحدا ليمنعه من ذلك. تذكرت كيف كنت أتمنى أن ينقذني الشرطي الذي كان يسير على الشاطئ..

ولكن الرجل استدار فجأة ونادى عربة «ريكشا» وهو يقول لنفسه: «لا... ليس هذا المساء».

الجو شديد البرودة اليوم. ربما غدا. يمكن أن أفعلها في أي وقت آخر.»

آه! إنه الخوف من الموت. ومع ذلك يصف المجتمع الانتحار دائماً بأنه عمل جبان. ألا يتطلب شجاعة نادرة وإرادة صلبة لتنفيذه؟

فكرت في ذلك الضعيف الذي هرب من الموت، وفكرت في أبي الذي كان يريد أن يرقد مكانني على المحرقة.

غيرت خططي. قررت أن أعود إلى المنزل حيث والدي. وهذه الفكرة في حد ذاتها مريحة لي.

عندما حوِّمتُ في أجواء غرفة المعيشة رأيت شمعة ومصباحاً زيتياً مشتعلان عند البقعة التي كان جسدي مسجى فيها قبل أن يحملوه في السيارة.

المنزل هادئ، باستثناء الشخير الذي كان يأتي متقطعاً من غرفة «ماري» وصوت مروحة السقف الضعيف. أبي وأمي نائمان في غرفة الضيوف. عاد بصري إلى الشمعة وشعرت بالهدوء وأنا أرقبها تحترق ملقبة ببقع من ظلها على الحائط.

كانت قد انتهت تقريباً. أصبحت بقايا شمع مصهور وذبالة قصيرة حية ولكن اللهب كان قويا وكله إصرار على الصمود أمام الموت الوشيك. أحرق في الشمعة وألاحظ التجويف الداكن داخل اللهب. البقعة الصغيرة من السكون التام في قلب الارتعاش النزق للنار. وفجأة سمعت شخصاً يتحرك في الشرفة. هل هو لص؟ بعد لحظة رأيت «بيتر» ينسل خلسة داخل غرفة المعيشة.

«أهلاً كلبي الصغير..» شعرت كأنني أناديه «ماذا تفعل هنا؟»

سار «بيتر» مجهداً إلى ركن بالقرب من حوض السمك وهو يدور حول نفسه قلقاً، ثم تحرك نحو البقعة التي توجد بها الشمعة المشتعلة وانكمش هناك، خطمه بين قدميه.. مثلما رأيته في الشرفة الأمامية في الصباح تماماً.

أستطيع أن أرى الأسى في عينيه الذابلتين.

تمنيت أن أسأله: «ماذا فعلت بنفسك يا عزيزي..؟ تبدو هزيلًا»، ولكنه زحف مرة أخرى إلى الركن بجوار الحوض وسمعته يقول لنفسه:

«هنا أكثر أماناً، إنهم ورائي طوال اليوم، سيدتي و«رامو» يحاولان الانتقام مني الآن بعد ذهاب سيدي. إن من يكرهه يكره كلبه! مرتين حاولت التسلل إلى هذه الغرفة ولكن السيدة كانت تركلني بعيداً. ظهري يؤلمني. ربما مجروح. حاولت أن أصل إليه بلساني لألحسه... ولكنه

مايزال يؤلمني ..

«ألحسه! من الغريب أن يثير ذلك تداعيات حزينة لدى.. بالأمس فقط وبعد أن كان سيدي قد ذهب إلى عمله، تسال ذلك الرجل. حضنها من خصرها في الشرفة ثم بدأ يلحسها كلها... وجهها.. نحرها.. رقبته.. ثم جذبها إلى داخل الغرفة... لم أر شيئاً بعد ذلك حيث أغلقا الباب عليهما بالمفتاح!

كل ما سمعته هو أنها كانت تعوى مثل كلبة في القفص.. لماذا يختفي الرجال والنساء خلف الأبواب المغلقة بين المغازلة ومطارحة الغرام؟ إنه مسلك جدير بالازدراء. نحن نمارس الجنس علناً. في الطريق.. في الحديقة.. تحت إشارات المرور.. بجوار محطة باص.. في أي مكان.. ماذا في ممارسة الجنس يستدعي أن يكون سرا؟ ما الذي يفعله أولئك البشر ولا نفعله؟

ولكنني أكره أن يلحس ذلك الرجل سيدتي ويأخذها خلف الأبواب... إلى غير ذلك! عار عليهم! سيقول الجميع أنني قد أصاب بالسعار لو رأيت «پولي» في وضع ممارسة الجنس مع أي كلب آخر... ولكن «پولي» ليست كلبة عادية.. إنها كلبة صغيرة ذهبية من سلالة نادرة.. ثم إنها في انتظاري في حديقة جارنا الخلفية..»

«ياللعجب..! من أي سلالة تلك المرأة؟ إنها تتصرف مثل الكلبة الضالة على أية حال. وأنا واثق أن سيدي لا يعرف شيئاً عنها. ليتني أستطيع أن أحكي له ما رأيت... للأسف.. نحن لا نتواصل سوى بالنظر وهز الذيل!»

«تمزقني فكرة أن أعيش مع هذه المرأة ومع «رامو». ماذا ينتظرني ياسيدي؟ أين ذهبت؟ ليس بالخيز وحده يحيا الكلب! نحن أيضاً في حاجة إلى الحب والحنان والفهم.. وكنت تمنحني ذلك كله»

«مازالت أشعر برائحة جسديك هناك بالقرب من الشمعة، حيث رقدت لفترة قبل أن يحملوك. لماذا تركتني؟ كنت أشعر أنه قادم. سمها الغريزة.. رأيت الكارثة في عينيك ذلك الصباح عند الإفطار. حس النهاية! كنت تجلس مطرقاً، معقود الجبين، شفتاك ترتعدان، أدركت أنك كنت تغلي بداخلك.. هل كان ذلك بسبب الخصام معها؟ من المؤكد أنكما تشاحنتما. ومع ذلك كانت يمكن أن تداعبني قليلاً.. ولكن.. لا كلمة.. لا لمسة على ظهري.. كنت أرقد منطوياً على نفسي بجوارك بالرغم من الشمس القوية.

رأيتك تقوم غاضباً ومرتبكاً، صرخت في «رامو» وأخذت سيارتك ومضيت. «أي فآل سيء!» قلت في نفسي! واليوم عدت في سيارتك... ميتاً! جذع شجرة اجتشته فأس. حسن! هذه نهايتي أيضاً..»

شعرت بالحزن الشديد. إذ بينما يظل وفاء كلبي كما هو لا يهتز، كنت ذاهلا عنه طيلة اليوم.. أحوم هنا وهناك. وحيث أن شهادة «بيتر» قد أكدت شكوكي في خيانة «ماري»، قررت أن أظل بعيدا عن غرفتها خشية أن تدمرني أحلامها تماما!..

ربما كان من المؤلم أيضا أن أستمع إلى أحلام والدي التي لا بد وأنها تدور حول موتني كذلك.

يدو أن أفضل طريقة للاحتفاظ بهدوئي هي الانسحاب بعيدا عن جميع أهل منزلي، مثل تلك البقعة السوداء المحجوفة الهادئة، الساكنة قلب اللهب. مثل السلحفاة. وفي نفس اللحظة هبطت عليّ بعض العبارات من «الجيتا» :

تسحب أرجلها الأربع تحت درعها في أمان..

تسحب حواسها الخمس الهشة تحت ترس الروح

بعيدا عن العالم

الذي قد يغير عليها!

ولحسن الحظ، على خلاف السلحفاة، كان قد بقيت لدى حاستان فقط هما السمع والبصر. ولكن ألم تسبب لي الحاستان مايكفي من دمار؟

هل أذهب إلى الشرفة لتمضية الليلة مؤرقا أعد النجوم؟ ربما كان ذلك مهدئا لي... ينتظرني هناك تحت السماء.. مرة واحدة كنت قد جئت إلى الشرفة الخارجية، وهذه المرة كان ضوء القمر يتسلل عبر التعريشة وينتشر في مربعات عديدة على الأرضية الموزاييك مكونا نفس الشكل الذي رأيته ساعة الإفطار.. باستثناء أنه الآن القمر الشاحب وليس الشمس النحاسية التي ترشق أشعتها.. ومن بركة ماء بعيدة، كان يأتي صوت نقيق ضفدع قويا وعميقا، وعويل كلبية حزين ينبعث من الطريق، كأنها تدعو رفيقها أن يأتيها في ضوء القمر الصريح.. ربما كان عويل «بولي».. ولكنها لا بد أن تعرف أن «بيتر» ليس في حالة تسمح له بممارسة الجنس هذه الليلة!

عندما قررت أن أقوم بزيارة مكتبي السابق لأعرف كيف يتصرف خليفتي، رأيت «نافيت» ديشباندي» يترأس اجتماعا للجنة التنفيذية. المكتب أعيد طلاؤه وعلى الأرضية سجادة جديدة والكرسی الذي كنت أجلس عليه يواجه الآن نافذة صغيرة وليس النافذة الموجودة بالخارج. على الطاولة صورة عائلية في إطار من الفضة لزوجته وأطفاله الثلاثة، ولكن ماذا عن الرجل المعجوز؟ هل رحل؟ كنت أتساءل بيني وبين نفسي.

قال «نافيت» بصوت متعجرف: «أعتقد أنني واضح!» وبعد أن أطفأ سيجاره في منفضة من الأنامل، وأصل كلامه: «... ثم إنني مصمم على الدقة والانضباط والنظام الصارم».

قاطعته «سودهاكار ريدي»: «هل تنوى أن تدير هذه الأكاديمية كمركز للفنون أم كوحدة عسكرية؟».

تذكرت كيف كان «نافيت» و«سودهاكار» يتصادمان دائما في الاجتماعات. «سودهاكار» لم ينس أبدا اتهامات «نافيت» المستمرة له، والزائفة دائما، حتى وهو نائب للرئيس. وعندما كانت كلمات «سودهاكار» المتحدية تدوى في المكان، كان جميع الجالسين حول طاولة الاجتماعات يبتسمون مبتهجين.

أنا أيضا شعرت وكأنني أريد أو أقول «برافو سودهاكار»! فهذه أول ضربة يتلقاها «نافيت» من أكبر معاونيه. سمعته يقول لنفسه: يا إلهي! كيف سأواجه ذلك؟ لو «ألقيت الفوطة» الآن ستكون نهاية خدمتي! رد عليه «نافيت»: «لا بد أن تعتذر عن هذه الإهانة ياسيد «ريدي»، قالها وجسمه كله ينتفض غضبا. قال «سودهاكار» «أنت مخطئ ياسيدي»، ولفظ الكلمة الأخيرة بطريقة ساخرة وعيناه تومضان: «الحومة عهدت إلى هذه الأكاديمية بمهمة ترقية الفنون، وبأن تتعامل مع مصورين ونحاتين وليس مع مجرمين. وهذا ليس أسلوب إدارة مؤسسة ثقافية. أما أن أعترز فإن ذلك لن يحدث، وربما كان عليك أنت أن تتكلم مع زملائك بطريقة لائقة فيما بعد... أتمنى أن يكون كلامي واضحا».

عندما كان «ريدي» يكرر كلمات «نافيت» كان صوته يزداد حدة..

- «هل تكف عن الصياح ياسيد «ريدي» وإلا...»

- «إلا ماذا؟» قال وهو يلتقط مثقلة الورق من على مكتبه كأنه سيضره بها على رأسه.
- ثم سادت فترة صمت حيث كان كل واحد من الحاضرين ينظر بقلق نحو الرجلين المتواجهين، ثم استأنف «نافيت» :
- «لابد أن تتذكر أن «رام كريشنا» قد مات، وأنني سوف...»
- قاطعه «سودهاكار» : «رام كريشنا لم يموت». كان يمسك بالقاعدة المسطحة لمثقلة الورق بيده اليمنى ويديرها.. ثم تركها تفلت إلى الأرض.
- «مازلنا نشعر بوجوده بيننا ودائما سنتذكره.. بالنسبة لنا «رام كريشنا» لن يموت أبدا»
- شعرت للحظة أن هناك من يفتدني. تمنيت لو أقول لـ«سودهاكار» أنني قد تأثرت جدا بكلماته... كان الموت قد فقد قسوته وأصبحت أشعر بالسلام مع نفسي...
- ثم قال «نافيت» بصوت هادئ نوعا ما: «سوف أضطر لطلب نقلك إلى إدارة أخرى..»، وتناول سيجارا آخر من جيبه تركه معلقا بين أصابعه دون أن يشعله.. رد عليه «سودهاكار» : «ولم لا تحاول؟ إن تعييني هنا كان بموافق الأكاديمية الوطنية وهي مؤسسة حكومية وليست استوديو من أملاكك.. ثم إنك يجب أن تعرف أن مثل تلك القرارات لا يتخذها فرد، بل لابد أن يكون بواسطة اللجنة بكاملها طبقا للوائح» ودون أن ينتظر تعليقه ضغط على الجرس الموجود على الطاولة: «فلنطلب من مدير المكتب نسخة من اللائحة». قال «نافيت» وقد زالت الحدة من صوته: «لماذا تريد أن تثير كل هذه الجلبة؟ أعتقد أنني لا أعرف اللوائح؟»
- «أنت؟»
- «لا تتكلم معي هكذا ياسيد «ريدي»، لقد تجاوزت كل الحدود!»
- «وأنت أيضا!»
- «في هذه الحالة لابد أن ألغى الاجتماع..»
- «وهذا من الأفضل لنا جميعا..»
- ثم قام وخرج وخلفه الجميع، وتبعهم أنا أيضا إلى الساحة الخارجية حيث تجمعوا مرة أخرى. كان «جولاب نابي» السكرتير المساعد أول من تكلم: «برافوا!»
- قال «بالاجي راو» نائبه: «ألا يستحق ذلك؟»
- قال «سودهاكار ريدي»: «ليس سوى نمر من ورق.. كنت سأضره على رأسه بمثقلة

الورق هذه...»

قال «سرينيفاس سوامي» ضابط العلاقات العامة: «أكثر ما أحنّني هو أنه بدا مزهوا بنفسه بمجرد وفاة والده». نظر «سودهاكار» إلى «سوامي» مدهوشا: «ماذا؟»

- «قفز في نهر حسين ساجار»

سأل «راو»: «انتحار؟»

- «يبدو ذلك»

سأل «نابي»: «هل قرأت ذلك في الصحف؟»

- «خبر صغير في صفحة الحوادث في «ديكان كرونيكل»

قال سودهاكار: «ربما كان عليه أن يخفي الأمر كله.. مجرد فأر في البوطة!»

وقلت لنفسي: «لقد فعلها الرجل العجوز إذن!»

كان الجميع يستعد للانصراف بعد انتهاء وقت العمل. ولكن المثير للدهشة ألا توجد أي إشارة على أن «نافيت» سوف يخرج من مكتبه. هل ما يزال تحت تأثير الإهانة؟ ولكن عندما عدت إلى غرفته رأيته جالسا مع «كيث كيشوري لال». من أين هبط هذا الكائن؟ هل كان في انتظار «نافيت» في غرفة الزائرين؟

قال «كيشوري لال»: «أثرت ألا أتكلّم معك في ذلك أثناء الجنازة احتراماً للميت.»

- «أنا أفم ذلك...»

- «ولكنني أتمنى أن تتولى أنت الأمر ياسيد «ديشباندي»»

- «آسف! قلت لك قبل ذلك أنني لا أريد أن أّلمس شيئا بدأه ذلك الرجل. أسلوبنا في التصوير مختلف تماما، ولا أريد أن يقتنر إسمي بإسمه بأي حال.»

قال «كيشوري لال» مبتسما: «ولكنك خليفته، ألا تجلس الآن في نفس الكرسي؟»

- «لسوء حظي.. اتضح أنه سرير من الأشواك.»

- «حسن... يظل قلقا الرأس الذي يلبس...»

- «لا... ليس إلى هذه الدرجة في الحقيقة...»

«أنا أتمنى فقط أن أمحو كل أثر لذلك الرجل..»

ثم كان صمت. بعد ذلك قال « كيشورى لال»: «لا أعرف شيئا عن شؤون إدارتك، ولكنني أحترمك كمصور عظيم..» وسمعتة يقول لنفسه: «لامانع من مناقفته قليلا!»

- «شكرا.. شكرا جزيلا..»

- «أعتقد أنك من اللطف والكرم لكي تساعدني، أنت تعلم أنني أضعت وقتا طويلا... ومبلغا كبيرا كذلك.. ليت موته تأخر أسبوعا أو أسبوعين!»

قال «نافيت» لنفسه: «اللعة! ليت مات قبل هذا!»

على الجانب الآخر كان «كيشورى لال» يفكر: «يتعاركان مثل الكلاب. هل يختلف الفنانون عن سواهم؟ لماذا لا يعرف هذا الرجل أنه لاجه للمقارنة بينه وبين سلفه؟»

قال «كيشورى لال» بصوت عميق وبطريقة رسمية: «حسن! والآن هل تريد أن ترسم لي صورة أخرى بأسلوبك أو بالشكل الذي تريد؟»

وجاءت الإجابة الصريحة: «أفضل ذلك؟»

- «كم؟»

- «نفس المبلغ الذي اتفقت عليه معه..»

قال «كيشورى لال» لنفسه: «ياالجشع النفس!»

- «عشرة آلاف، نصفها يدفع مقدما..»

- «وهو كذلك!»

- ١٣ -

صباح آخر. كانت دهشتي بالغة عندما رأيت أبي وأمي في الشرفة الأمامية ومعهما حقيبة كبيرة مملئة عن آخرها وجرة من النحاس الأصفر مزينة بالورود. سمعت أبي يقول لها: مرتين تقريبا كاد أن يصيبني الانهيار وأسقط على الأرض بينما كنت أرش اللبن المحلى على رماده.. ردت أمي بنظرة حزينة، ثم اتجهت عيناها صوب الشمس وهي تنهد!

- «لماذا لا تنتظرين أنت هنا وتتركيني أذهب بمفردي؟»

- «لا!»

- «هل ستحملين؟»

- «نعم.. لا بد أن أذهب معك... أرجوك..»

أدركت أن أبي لا بد أن يكون قد تسلم رمادي من المحرقة عند الفجر عندما كنت أنا في الشرفة، وعلمت أنني لا بد أن أصبحهما إلى «بينارس». أذكر أنني كنت قد ذهبت إلى هناك آخر مرة مع أبي في مناسبة غمر رماد عمي، ويومها قررت ألا أعود إلى مدينة الموتى تلك، ذات الشوارع والأزقة الملتوية.. وما فيها من قاذورات وضوضاء وذباب وبعوض!

ولكن هل يمكن أن أتجنب رحلتي الأخيرة؟

بمجرد وصول القطار إلى محطة «بينارس» قبل شروق الشمس، تجتمع حول والديّ جمع من الكهنة، كل منهم يحاول اختطاف جرة الرماد وهو يقول: «دعني أقوم بذلك ياسيدي».. ولكن أبي طردهم جميعا وسار نحو كاهن، كان يقف وحيدا في وقار بعيدا عن الزحام.

- «هل تفضل بإقامة الشعائر من أجل ابني؟»

- «هذا يشرفني ياسيدي»

- «كم؟»

- «أي شيء...»

- «هذا غير معتاد!»

- «... هكذا أنا ياسيدي»

قال أبي: «دعنا إذن نلتقي عند غوط* «أهالياباي» في العاشرة، بعد أن نكون قد استرحنا قليلا في أحد الفنادق.»

- «ستجدني هناك.»

وانصرف الكاهن. حمل أبي الحقيقية بينما حملت أمي الجرة وخرجنا من المحطة يجران أقدامهما من شدة الإجهاد..

وحيث أن رماد عمي كان قد تم غمره عند نفس «الغوط» المتفق عليه، كنت أعرف المكان. لماذا إذن لا أطوف حول المدينة بعض الوقت بدلا من البقاء هنا مع أحزان أبي وأمي؟ وبينما أنا أثب متنقلا رأيت مدينة «بينارس» منبسطة من حولي بقباب معابدها الذهبية وأرصفتها شوارعها المزدهمة بالكهنة والحجيج الذين جاؤوا من كل فج عميق، كنت أسمع طنين الأرواح التي كانت ترفرف مثلى في الفضاء تشاهد شعائر غمر أجسادها.

فكرت في نهر «الجانج» المقدس الذي يستقبل كل يوم أكداسا من الرماد ومع ذلك ينساب هادئا تحت ذلك الحمل الأسود الثقيل.. على مياهه الخمرية اللزجة تبحر القوارب صغيرها وكبيرها حاملة الشكالي على صفحته الفسيحة، بينما يلقي الأفراد برماد ذويهم ويلقى الكهنة بترانيمهم المقدسة. يبدو النهر من تحتى مثل طريق تجارية كأنها تنقل البضائع المهرية إلى العالم السفلي.

على امتداد ضفتيه، وبالقرب من كل غوط، كان يقف جمع من الحجيج يغمرهم الماء إلى الركبة، يحفنون الماء المقدس ويرتلون... وعلى مسافة قريبة يوجد عدد من الكهنة البراهمة كل منهم يجلس على مقعد خشبي مرتفع يعظ مجموعة من الناس الجالسين أمامه على الأرض وعلى جباههم علامات الكاستي*، وأجسادهم في المئزر الأصفر البرتقالي تلمع في شمس الصيف الشديدة.

اقتربت من أحدهم، كاهن قوى البنية كان يتحدث مع اثنين يجلسان معه على نفس المقعد..

* درج ينزل عليه الناس إلى النهر (المترجم).

** إحدى الطوائف الراهبة عند الهندوس (المترجم).

وبالقرب منه رأيت رجلا يلبس «دوطي» قدرا يطحن خلطة من مواد مختلفة متناثرة حوله:
لوز، عسل نحل، زبيب، قرفة، حليب.. كأنه يعد شرابا مخمرا مقدسا للإله..

سمعت الكاهن يقول: «العقم لا يجدي معه دواء أو جراحة..»

قال الرجل: «نعم ياسيدنا»

- «أعمالك السابقة.. «الكارما» هي السبب وهذا كل ما في الأمر..»

- «نعم ياسيدنا.. صدقت.. لقد أنعم الله علينا بكل شيء آخر... عملي يسير سيرا
حسنا!»

- «أي عمل!»

- «أنا أصدر التوابل والشاي إلى الشرق الأوسط، ولكن مافائدة ذلك كله وليس لنا ابن
يرثنا؟»

وهنا تدخلت زوجته في الحوار: «هل يمكن ياسيدنا أن تبطل مفعول الآثار السيئة لأعمالنا
السابقة؟»

عقد المعلم حاجبيه كأنه يفكر عميقا ورأيت وجهه مثبتا على وجه المرأة وسمعتة يقول
لنفسه:

«طازجة كثمرة جوز الهند الناعمة، يا إلهي! شفتان لوز مغموس بالعسل... ويطننها تحت
السرة!.. وصدرها... آه..! كأسان من عسل وحليب... ليتني أشرب من هذين النبعين!»

ثم قال ولسانه يجري على شفتيه: «نعم يا عزيزتي.. ممكن! هناك يوجانا* في كتابنا
المقدس تحقق مثل تلك المعجزات.. وبعد أن صمت لحظة «سأعملها لك.. وسيرزقك الله
بأبن..» ثم رفع يده اليمنى كأنه يمنحها البركة بعد الصلاة. قال زوجها سعيدا: «بارك الله فيك
ياسيدنا..»

وقالت الزوجة: «سنبقى مدينين لك إلى الأبد...»

افتر وجهه عن ابتسامة فبدا عريضا وقال:

«أنا مجرد أداة في يد الله، ربما يكون قد اختارني لكي أنقل لكما شيئا من عنده، أعرف
أنها مشيئته.. التي لا بد أن يسلم المرء نفسه لها..»

قالت: «صدقت ياسيدنا..»

❖ آية تصلح رقية.

– إذن فلأبدأ «اليوجانا» في الحال... ثم راح يرتل:

«يا براجاباتي»

أيها الإله الخالق

ازرع بذرة في رحم هذه المرأة

اجعل الأرض المحروثة تعود إلى الحياة بسرعة

اجعل ابنا ينهض منها

كما يخرج طائر القرلي الرفراف من مجرى ماء رائق.

ارزقهما يا وهاب

فقد عقد كل توكلهما عليك..»

وبمجرد أن انتهى من ترتيبه استدار ناحية الزوج. «لقد رأيت كيف تضرعت طالبا البركة من «براجاباتي»، على زوجتك أن تكمل «اليوجانا».

– «ما هو المطلوب ياسيدنا؟»

– «غدا.. لابد أن تصوم من الفجر إلى الغروب. ثم تخرج بعد الغسق بمفردها إلى شرفة المنزل، تخلع عنها ثيابها تماما، تسمح جسدها كله بزيوت البراهمي ثم ترقد على ظهرها على الأرض لكي تقوم «شاندراماتا» إلهة القمر بتدليكها من الرأس إلى القدم.. وتظل هكذا حتى منتصف الليل ثم تكسر صيامها..»

– «ستفعل ذلك ياسيدنا»

رأيت على وجه الزوجة نظرة ذاهلة. كأنها في عالم آخر.. كانت بخيالها نائمة عارية في الشرفة في ضوء القمر...

«ثم عليها أن تجيء إلى هنا غدا مساء بعد الغروب بساعتين.. تجيء بمفردها.. مفهوم؟ اليوجانا خاصة بالزوجة فقط وليس بالزوج. سأصلي لها مرة أخرى وأقرأ بعض الآيات وفي هذه المرة سأكون وحدي.. ولكن خلف معبد «شيغا»، قد يتطلب الأمر أن تبقى ساعة أو ساعتين..»

– «ستفعل ذلك أيضا ياسيدنا...»

«الإله الشمس خالق كل شيء ورب الأحياء الذي خلقه الإله «إندرا» عن عرشه.

ثم سأله وهو يبدو عليه الفرح: «كم ثمن هذه اليوجانا ياسيدنا؟»

تصنع الكاهن الغضب في صوته وهو يقول: «لا تتكلم عن النقود.. لست مثل غيري من الكهان، يمكن أن تقدم أي نذر.. ولكن بعد أن «ت..ح..م..ل..»»

وبعد أن نطق الكلمة الأخيرة منقطعة، تبادل الزوجان نظرة سعادة واطمئنان. لو كان عندي الوقت لحصت على رؤية كيف سيقوم «سيدنا» بتلك الشعائر العبقريّة، ولكن انتباهي تشتت على صوت جلبة وضوضاء صادرة عن جماعة تنطلق مذبذبة نحو قارب على شكل هيكل عظمي لحيوان ثديي بدائي، ومعهم كاهن ذو أنف مثل المنقار، مجمدة على وجهه الدهني ابتسامة شاحبة.

كان كل رجل يلف جسده في منظر أبيض ويحمل في يده جرة من الخزف أو البرونز، كأنهم في رحلة بحرية مريحة، وعندما تحرر القارب من مرصاه انفجر الكل منشدًا*.

«هاري راما»

هاري كريشنا

رادي شياما

كريشنا كريشنا

هاري كريشنا

راما كريشنا»

فكرت للحظة أنهم كانوا يرددون اسمي ولايتوسلون للإلهين العظيمين لكي نخل بركاتهما، وعرفت أن القارب كان يحملهم إلى مكان بعيد لغمر رماد أجبائهم الراحلين.

وعلى الضفة الأخرى من «الجانب» كنت أرى بعض التماسيح وهي تزحف فوق الرمال. على هذا الجانب ليس هناك غوطات ولا كهنة. رمال فقط، وتمادس، وأشجار نخيل. سمعت الساعة تدق العاشرة من معبد صغير تحت غوط «أهاليا باي» مباشرة. وعندما استدرت رأيت أبي يتحدث مع الكاهن الذي كان قد اتفق معه عند محطة القطار. المسرح إذن معد الآن من أجل المراسم الأخيرة الخاصة بي. ولكن أين تراها قد ذهبت أمي؟

هل ممنوع عليها أن تشارك في هذا الطقس أيضا لأنها امرأة؟ لماذا إذن تجشمت مشقة السفر من «حيدر أباد» إلى «بينارس»؟ هل كانت تريد أن تبقى بالقرب من رمادي أطول وقت

* ابتهاج الخلاص العظيم للإله الأعظم (المترجم).

ممکن؟ هل هو تعلق بالبقية الباقية مني؟

تابعاً الرجلين حتى الغوط لاحظت أنهما بدل أن ينتظرا في الصف حتى مجئ قارب كبير، فإن والدي ركب قارباً يتسع لشخصين. لابد أنه قد رتب لإقامة مراسم مقصورة على وحدي. ورغم أننا كنا قبل الظهر إلا إن الشمس كانت شديدة الحرارة في السماء الخالية تماماً من السحب. أشعتها تلمع فوق سطح الماء كأنها رماح تشق أحشاء النهر، ولمعانها ينعكس على بعض الجرار التي لم يكن النهر قد ابتلعها بعد.. وعندما أصبح القارب في منتصف النهر تقريباً نبه الكاهن أبي لكي يلقي بالجرة، ثم بدأ يرتل:

«هذه ليست النهاية

ولا كان الميلاد هو البداية

فالشمس ولدت قبل أول شروق لها

وسوف تبقى بعد الغروب الأخير..

الجاهل فقط هو الذي يحزن

على جسد الميت،

اللحم والعظام تتحول إلى رماد

لا دوام لوردة أو زهرة..

إلق بكنزك الأخير يارجل

في أمنا «البجانج»

وعد إلى السوق يا إنسان..

إنها دورة أخرى..

الرماد في الماء..

الموت في الميلاد..

ومن الموت ميلاد آخر

إلى أن تذوب اللحظة في الأبدية

ويمتزج النهر بالبحر»

كان صوت الكاهن هادئا ووقورا، ورأيت في عينيه نظرة تفكر عميق كما لو كانت تراثيله قد هزته من الداخل أيضا..

ولكن بمجرد أن انتهى من صلاته سمعت أبي يقول لنفسه: «إنها كلمات نبيلة.. مطمئنة للنفس... ولكنها تظل كلمات... مجرد كلمات... أنا لا أعرف حتى من أي كتاب مقدس هي، أم تراه قد ارتجلها؟ كيف يمكن أن يترك الإنسان عنه كل ذلك. ألا يغضب النهر حين يمتزج بالبحر؟ ألا يمتلئ النهار عندما يذوى في الليل؟ ألا تطقطع الشجرة عندما تقطع وتسقط على الأرض.. تماما مثلما تنشق التربة عندما تخرج منها البذرة؟ نعم! أعرف كل ذلك. ولكن ما قيمة الراحة بالمعرفة عند لحظة الوداع؟

ثم أخرج والدي كيس نقوده وأعطى الكاهن أربعين روية...

قال الكاهن: «هذا كثير...»

وأصر والدي: «أرجوك»

: «شكرا جزيلا»

: «كان ترتيلك مؤثرا..»

تنهد الكاهن: «غمرت بنفسي رماد ابني في الربيع الماضي» وكان والدي يحرق في وجه الكاهن كأنه يبحث عن شيء ما... ثم سأله:

- «وهل ساعدتك المعرفة على مواجهة ذلك؟»

- «لا!»

- ١٤ -

أصابني جو هذه المدينة التي يخيم عليها الموت بالاكثاب، فتركت والدي وعدت إلى «حيدر أباد» وبني رغبة شديدة لرؤية «بيتر». وفي البيت سمعت «جويال مينون» يسأل «رامو» وهما يقفان في الرواق: «كيف حال الكلب».

فأجاب الخادم: «ليس على مايرام ياسيدى، يبدو أنه قد فقد شهيته للطعام تماما».

- «وماذا ستفعل لذلك؟»

أجاب دون مبالاة: «لا أعرف!»

كان «بيتر» يرقد على الأرض في الشرفة الأمامية كتلة من الصلصال.. لاحياة بالمرة.. تقطر من عينيه الحزنتين مادة زيتية وهو يحاول أن يهرش برجله الأمامية اليمنى قملة كانت تسرح على ظهره المخملى. عظامه بارزة، ويبدو كأنه هو الآخر عبارة عن روح تحررت من الجسد، ولذا ظللت بعيدا حتى لا أدخل في أحزانه.

سأل «جويال»: «وأين السيدة؟»

- «ذهبت لتقضي اليوم في قريتها «بولنجبالي»..»

- «بمفردها؟»

- «لا أعرف..»

شعرت بالخداخ، فوالداها كانا قد ماتا من زمن بعيد، وليس لها أحد الآن في «بولنجبالي» ولا بد أن أتقربها عل نحو ما. هل تراها مع «جورج»؟ وأين؟

قبل أن أعرف مايدور وجدت نفسي أرفرف فوق «بولنجبالي» على الطريق إلى «فيجايا وادا»، ونتيجة امتداد أعمال الشغب إلى أطراف «حيدر أباد» كانت كل القرى حتى قلعة «جولسوندا» وبحيرة «جنديت» تبدو هادئة، لكنه الهدوء الذي ينذر بسوء. وعندما حلقت فوق القلعة رأيت المنظر كله... لا أحد من البشر هنا تقريبا.. لا أحد سوى مرشد سياحي يجلس

وحيدا عند المدخل الرئيس للقلعة يدخن الشيعة .

ثم فجأة، لحت سيارتي «الأمباسادور» الخضراء مركونة عند الإفريز خلف الجانب الشرقي من سور «جولكوندا»، وعندما وثبت إلى أعلى الدرج الطويل الملتف حتى القمة رأيت «مارى» جالسة مستكنة إلى جوار «جورج» على لوح من الحجر الأسود في ظل أحد الأعمدة، وأمامهما في ضوء الشمس الحارق يجثم رجل عجوز يستعرض مهارة قردين لتسليةهما .

كان الرجل يصرخ وهو يوجه عصاه نحو القرد المعمم:

- «هيا يا «سردار» .. استمر .. لا تتوقف .. فوق الحيوان على قدميه الخلفيتين ومؤخرته تلمع في ضوء الشمس كأنها جرح مكشوط .. كان في عمامته الصفراء وتنورته الزاهية القصيرة يبدو كالعريس الذي يتبختر على رأس موكب زفافه، وخلفه تخطر زوجته في تنورة برتقالية اللون مرصعة بقطع من المرايا الصغيرة ورأسها مغطاة بمنديل مثل عروس خجولي ..

- «قبلها يا «سردار» ! قبلها... استدار القرد نحو رفيقته بسرعة ووضع يده اليمن حول خصرها ومد لسانه الأحمر ليقبلها. فقال صاحبهما: «وهكذا تصالحا مرة أخرى، وصارا في سعادة البلبابل .. فضحكت «مارى» .. وضحك «جورج» ... «كما ترين، «سردار» متقلب المزاج إلا إنه يحب زوجته كثيرا .. وبالمناسبة فإنه يقرأ الكف أيضا .. إنه قرد واسع المعرفة! ثم إنه قبل ذلك كله من سلالة أصيلة ... سلالة الإله «رافانا» . فانفجر «جورج» و«مارى» مرة أخرى في الضحك .

سأل القرداتي «مارى»: «هل تريدان أن يقرأ لك كفك ياسيديتي؟»

- «أنا؟ لو لمسني أموت!»

- «لن يؤذيك ياسيديتي ... «سردار» لطيف جدا مع السيدات، القرد لا يستيقظ فيه إلا مع زوجته أحيانا وفي النهاية ينتهي بهما الأمر إلى صلح مثل العشاق ... وكما رأيت الآن ...»

- «أخاف أن يلمسني»

- «مدى يدك وأنا هنا بجوارك أيضا...» قالت وهي تشير إلى جورج: «يقرأ كفك أولا...»

رأيت القرداتي يهز مقود «سردار»، وفي الحال اقترب القرد بشفتيه من أذن سيده كأنه يهمس له بسر ..

- «حسن! سأقول لها... إنه يريد أن يقرأ كفك أولا ياسيديتي ... يبدو أنه يستثار عندما يرى سيدة في تنورة.»

شعرت بالرغبة في أن أقول: تماما مثل «نافيت ديشباندي» عندما كان مستثارا أمام جسدي المسجي وهو ينظر إلى ساقي «مارى»!

احمر وجه «مارى»، وعندما فتحت كفها وهي خائفة نظر إليه القرد مليا، ثم استدار نحو أذن صاحبه.. قال لها الرجل: «هل كان هناك شخص مريض أو حدثت حالة وفاة أو ميلاد في الأسرة مؤخرا؟»

قلت في نفسي: «وهل تبقى هناك احتمالات أخرى؟» وقالت ماري: «نعم! حالة وفاة..»

– «قريب وعزيز؟»

– «نعم شخص قريب..!»

قلت في نفسي «ياإلهي! يالها من طريقة قاسية ومقتضبة للاعتراف بي». وعندما نظرت إلى وجه «سردار» أدهشني أنه كان يشبه الوجه البشري باستثناء ذلك الانتفاخ الشبيه بالجرب بين الحافة السفلي للأنف والشفة العليا ورأسه الضيق، هذا إلى جانب الخالب والذيل بالطبع! تساءلت بيني وبين نفسي، «ترى ماهي «الكارما» التي حولته إلى نصف إنسان ونصف حيوان على هذا النحو الساخر؟ عاد القرداتي يسأل «جورج»: هل لديك أطفال ياسيدي؟»

– «لا!»

– «إذن هل تسمح لـ«سردار» بنظرة سريعة أخرى إلى كف السيدة؟»

وافقت «مارى» وهي تبدو مطمئنة إلى حد ما هذه المرة.. ثم تقدم «سردار» وأخنى رأسه على كف «مارى» ثم عاد إلى صاحبه الذي قهقهه عاليا..

سأله «جورج»: «ماذا يقول؟»

– «لا ياسيدي، إلا هذا! «سردار» يخرج أحيانا عن حدود اللياقة... قليل الأدب. الحمد لله أن هناك مايزال الفرق الوحيد.. الذيل.. وإلا...»

قاطعت «مارى»: «دعنا نعرف». نظر الرجل إلى أسفل وقال – «حسن ياسيديتي... قال...» ثم سكنت والخرج يبدو عليه.

قال جورج: «تكلم... ومهما كان ماقاله»

قال القرداتي: «سردار» يقول لو أنكما... هذا المساء في أي وقت بين التاسعة والعاشرة وهي فترة الخصوبة السعيدة فإن السيدة سوف تحمل. ابتسم «جورج» وهو يلقي نظرة سريعة خبيثة نحو «مارى» التي احمر وجهها خجلا.

قلت لنفسي: «في هذه الحالة يكون «ياما» قد انتصر علي»، كنت متاكدا أن «مارى» عاقر وأن القرداتي كان يخدعهما.

ولكن إذا كان من الممكن أن تحمل فلا بد أن تنتظر حتى يومى الثالث عشر، وحينذاك يمكن أن أندمج في رحمها لأولد من جديد في هيئة ابن لها. أكون زوجا وابنا.. ويكون «چورچ» هو أبى الثاني..

وبينما كان «چورچ» يدفع للقرداتي أجره رأيت كيس نقوده متضخما... لقد بدأ إذن بعثرة أموالى!

انتهت اللعبة، نهض صاحب العرض، حمل حقييته القماش على كتفه وجذب المقود مشيرا لحيواناته أن تتبعه.. بدأت الشمس تتسلق السماء، هبط على القلعة سديم برونزى كثيب بينما كانت الزواحف البرية تجرى في كل مكان وهي متعثرة في خطواتها الخرقاء، وعلى مسافة قريبة كنت أرى مياه بحيرة «جنديت» الفضية وهي تتحول لتصبح رمادية اللون.

«لماذا تبدو القلعة المتهدمة دائما مثل المقبرة؟» «فكرت». هل لها هي الأخرى روح مثل البشر؟ وهل تفكر في ماضيها بحزن حتى تحولت إلى أنقاض تبرز من بينها الأعشاب كما تخرج الحشائش من فم ميت؟

يبدو أنني قد بقيت مستغرقا في هذه الأفكار طويلا، لأنني عندما عاودت النظر إلى اللوح الحجري وجدت أن «چورچ» و«مارى» كانا قد رحلا.

وبعد دقائق قليلة رأيت سيارتي «الأمباسادور» تسير بسرعة على طريق «فياجا وادا» في اتجاه البحيرة. فإذا كانت «مارى» قد بدأت شهر العسل الثاني، فإني أعرف وأتوقع مايمكن أن يحدث بعد ذلك.

الحقيقة أنني لحقت بهما في فندق «ستار ليت» المطل على البحيرة. كان «چورچ» يتحدث مع سيدة عند مكتب الاستقبال:

- «لقد حجزت بالأمس بالتليفون».

- «باسم من، من فضلك؟»

- «السيد والسيدة» كينيث چورچ...»

نظرت الموظفة في السجل أمامها وهزت رأسها...

- «حجزتما الغرفة الموجودة في الركن....»

- «بالضبط!»

كانت «مارى» تقف خلفه هادئة رزينة!

- «حتى صباح الغد..»

- «نعم!»

سمعت السيدة تقول لنفسها: «عاشقان يتظاهران بأنهما زوج وزوجة، لماذا لا يذهبان للمعابشة في الحدائق العامة.. خلف الأشجار؟»

ثم قالت: «تفضل.. المفتاح ياسيدي.»

وبينما هما يسيران نحو الغرفة التي كنت قد قضيت فيها شهر العسل، توقفت «مارى» بالقرب من صبارة مرقشة كانت أوراقها متفرعة في الهواء، وأخرجت دبوساً من شعرها المعقود خلف رقبتها وخزت به ورقة الصبار، فبرزت قطرات من سائل حليبي راحت تنساب على شوكة الأوراق.

سألها جورج: «لم فعلت ذلك؟»

- «لا أعرف.. ربما كان فعلاً لا إرادياً..»

قال حائراً - «ماذا قلت؟»

ظهرت امرأة أخرى من الغرفة المجاورة ونظرت بفضول نحوهما ثم اختفت.

قال «جورج»: «لندخل، ليس هناك ما يدعوا لعمل مشكلة هنا..»

- «متأسفة!»

وتبعته إلى الغرفة. وبمجرد أن جلست على الأريكة قالت:

- «عندما جئت إلى هنا مع «رامى» لأول مرة، رأيته يفعل ذلك بدبوس الكرافتة. كان من عادته أن يقول أن اللبن إذا تدفق في شراييننا بدل الدم فإن الموت يفقد وخزه وقسوته.. وأنه لن يكون مؤلماً.»

قال «جورج» وهو جالس على مسند الأريكة: «تلك نظرية حمقاء!»

«كانت كل نظرياته عن الحياة والموت والفن غريبة»

قال «جورج»: «مجنون! ولكن لماذا وخزت الصبار؟»

قالت: «لماذا لم تقل لي، هل كنت أحاول أن أقتل ذكري شهر عسلى الأول؟ إن أفضل طريقة لنسيان شيء كهذا هو أن تعيشه مرة أخرى.. أليس كذلك؟!»

- «لا أعرف...»

ثم ساد صمت لفترة قصيرة، بعدها سألته: «ما هذا الطنين الذي أسمعُه هنا؟» ونظرت ذاهلة..

- «ربما خرير مياه» جنديت «يا حبيبتي...»

ثم وقف في قلبي: «أعتقد أنك تفقدين صوابك..»

- «آسفة...»

- هل تعرفين أين الخطأ يا «ماري»؟

- «ماذا؟»

- «أنت تحاولين الإمساك برجلين في عقلك، أم ياترى في قلبك؟»

- «ماذا تقول؟ لا تكن سخيفا، لقد مات وانتهى وأتمنى أن يكون والداه قد فرغا من غمر رماده في الجانج الآن،»

- «وأنا أيضا أتمنى ذلك.»

ثم انحنى على رأسها ونزع كل دبابيس الشعر وهو يقول: «لا وخز أكثر من ذلك، لاحليب إلا إذا كان من هنا» وراح يداعب صدرها بأصابعه التي كانت تتحرك الآن على نحرها لتفك البلوزة وحمالة الصدر! ثم همس في أذنها:

- «أذكركين ما قاله سردار؟ اقتربت ساعة الخصوبة، إنها الآن التاسعة إلا ربعا.»

قالت: «لقد اعتقد القرداتي أننا زوجان، ولكن كيف يمكن أن يحدث حمل قبل الزواج.. كيف ترى ذلك؟»

قال: «شهر واحد فوق ذلك، فترة الحداد، بعده يمكن أن نفعل أي شيء. مفهوم؟»

- «نعم يا حبيبي!»

ثم نهضت كما تنهض عروس البحر من أعماق الماء.

عندما أصبح جسد «ماري» عاريا أمامه استولت شفتاه على رقبتها، ذقنها، كتفها اليسرى، راح يقبلها حتى الخصر..

ثم أمسك بسبابقتها بين أسنانه مثلما يمسك كلب «البودل» بيد سيده دون أن يعضها...

- «كل جزء من جسدك له نكهة خاصة! ولكنني أحببت طعم الفراولة في فمك أكثر من أي شيء آخر..»

ابتسمت وهي تستدير نحوه وتحدق فيه مثل حيوان مفترس.

- «يبدو أنك ستعطيني حمام لحس!»

- «ولم لا تتركيني أفعل؟»

- «لا بد أن أستحم أولاً.. طوال هذه الأيام كنت أحس أنني في قبضة أخطبوط سام.. كأنني كنت أكل وأنام مع الموتى!»

- «وهكذا يعود ذهنك مرة أخرى إلى ذلك الرجل!»

سمعت «جورج» يقول لنفسه: «اللعة على كل شيء! دائماً ماتثير أعصابي... ها أنذا أحاول أن أجهزها وهي تطلق عليّ الأخطبوط والموتى..»

- «حسن! اذهبي إلى الحمام، ربما كنت أنا أيضاً في حاجة إلى حمام..»

- «ولكن بعدى..»

- «بالطبع..»

ولكن بمجرد أن دَخَلَت الحمام، خلع ملابسه وتسلس وراءها.

- «لا... أرجوك...»

عندما تبعتهما رأيتهما يتبادلان رش الماء كالأطفال في مسبح.. قال وهو يقبل شفيتها وصدرها:

- «تخيلي لو أننا أخذنا حمام شمپانيا..؟ كان يمكن أن يتجرع كلانا جسد الآخر! ألا يكون ذلك مزيجاً من شرابين... الجسد والشمپانيا؟»

قالت وهي سعيدة: شراب مسكر.. حقيقي.. هل تعلم أن «رامي» لم يفكر أبداً أن يشاركني الحمام، ومع ذلك كان يتباهي بنفسه كمصور للأجساد العارية وبأنه فنان الجسد؟»

- «ألم يرسم صوراً لرجل الأعمال من أجل المال؟ ربما كان يرسم الحوريات الآن في العالم الآخر.. هذا إذا كان قد ذهب إلى الجنة، وليس إلى المكان الآخر...»

قالت «ماري» وهي تضحك: «لاتنس أنه هندوسى وليس مسلماً، ولا أعرف إن كانت

السفارجا* الهندوسية تقدم نفس التنوع..
تمنيت لو أنني أستطيع خنقهما هنا معا تحت الدش بسبب تلك السخرية وذلك الفسق
الداعر!

❖ العالم الآخر - السماء..

- ١٥ -

يبدو أنني فقدت الإحساس بتسلسل الزمن. لا أعرف كم يوما مضت منذ جنازتي ولكنني وضعت الآن نظاما جديدا يحقق لي بعض السلوى بعد اضطراب الأيام الأولى. أقضي الليل في شرفة منزلي أشاهد تشكيلات النجوم والنهار في الحقائق العامة بالقرب من «ميدان فاتح» مرفرا فوق حديقة الورد وبركة اللوتس والمساحات الخضراء حول قاعة البيويل. تمنيت لو أستطيع أن أرسم الزهور والورود فقط بدل الرسوم العارية والبورتريةا الشخصية وأرشف حول الورد لأرى كيف يتفجر ليصبح مظلات من التويجات.. مثل راقصات الباليه تنهضن من زهرة لوتس ضخمة في باليه البولشوى. ولكن فوق كل شيء، كان الرنين الصامت للبتلات وهي ترتطم ببعضها مثل الصنجات. صوت لم أسمع من قبل، ربما كانت الأذن العادية الحية لاتستطيع الاستماع إليه..

كنت دائما أسمع البذرة تبرز مع صرخة فرح من التربة فتصبح نبتة. كانت الزهرة الصغيرة تشبه العجل حديث الولادة وهو يترنح على أظلافه الصغيرة عندما يفاجأ بالبياض والضوء المبههر على عكس ظلام رحم أمه البارد..

وذات صباح بدت الرياح الموسمية وكأنها قد انطلقت من عقالها غاضبة مرة أخرى. أغرق الماء المتدفق من كل المازيب على امتداد الشرفة كامل المساحة الخضراء أمام المنزل..

سمعت «مارى» تدعو «رامو» إلى الشرفة الأمامية وتسأله:

- «متى يجى الكاهن؟»

- «في التاسعة والنصف تقريبا ياسيديتي»

- «وهل يجى في هذا الجو السيء؟»

- «طلبت منه أن يستقل سيارة أجرة إن كان ذلك ضروريا..»

- «.. وهل انتهيت من الترتيبات الأخرى؟»

- «نعم ياسيديتي..»

ثم ساد صمت، لتعود وتسأله: «وماذا تعني هذه «الكريا»؟ فعلا؟»

- «إنها نوع من وداع الروح قبل أن تخل في جسد جديد..»

- «تناسخ؟ تقمص؟»

- «نعم ياسيدتي...»

- «وهل هذا ما يحدث في اليوم الثالث عشر؟»

- «نعم ياسيدتي..»

- «ولماذا ليس في الثاني عشر أو الرابع عشر؟»

- «لا أعرف..»

قالت لنفسها: «أمر غريب! كيف يكون أولئك الهندوس واثقين تماما من معتقداتهم كما لو أن واحدا قد مدد مقام الروح من الموت حتى إعادة ميلادها؟»

كان الكاهن أول من حضر في سيارة أجرة، تبدو على وجهه علامات الأهمية. إذن فقد حانت أخيرا ساعة حسابي!

شعرت بالارتياح وفكرت أن أي شيء يمكن أن يكون أقل وطأة مما تعرضت له.

بعد وقت قصير، وبينما كان المعزون يتوافدون بسياراتهم أو سيارات الأجرة، «بقشيش»، «كيشوري لال»، «ديشاندي»، «سودهاكار»، «بالاجي راو»، «سرينيفاس سوامي» وغيرهم، جاء «جويال مينون» وزوجته سيرا على الأقدام وهما يخوضان في مساحات الماء الأشبه بالمستنقع أمام الرواق.. كنت أتبع المعزين حتى غرفة المعيشة فرأيت في الوسط وعاء حديديا به بعض شظايا خشب. وعلى بعد أقدام كانت هناك شمعة بيضاء تشتعل شاحبة في ضوء النهار، في نفس البقعة التي كانوا قد وضعوا فيها جسدي قبل تحميّله في السيارة البيك أب..

جلس الكاهن على جلد نمر فردوه له على الأرض. في مواجهة الوعاء كان يوجد الزبد والكافور والسكر والقرفة. ثم طلب من أبي وأمي أن يجلسا أمامه في الجهة المقابلة.

أشعل والدي شظايا الخشب وصبت أُمّي الزبد فتصاعدت ألسنة اللهب عفوية، وبدأ الكاهن في التلاوة بينما الجميع جالسون في صمت تام. لاحظت أن معظم ما يترنم به كان هو نفس ماسمعه عند إحراق، عندما كان الكاهن يكرر عبارات من «الجيتا»* تطلب من البشر ألا

* طقس بقيقه الكاهن الهندوسي لوداع الروح (المترجم).

* أنشودة العظم التي توضح طبيعة الانسان والكون وهي جزء من المهابهاراتا (المترجم).

يولولوا على الميت لأن الروح خالدة.

بدأت ساعة الحائط في شرفة منزلي الخلفية تدق العاشرة. تذكرت كيف إنني عندما ظهرت خارجا من نهر «موسى» كنت قد سمعت ساعة البرج تعلن نفس التوقيت بعد حديثي مع «ياما». شعرت بقوة غامضة تجذبني خارج البيت.. وعاليا إلى السحب البعيدة..

ورأيت نفسي أخيرا ريشة في مهب الريح.

- «وهكذا نلتقي هنا مرة أخرى».

استدرت نحو مزقة طويلة من سحابة سوداء جاء منها الصوت.. صوت «ياما» بالتأكيد.. وكانت السحابة تلوح أمامي نسرا مفرد الجناحين..

قال الصوت: «أرى أنك عرفتني..»

- «نعم ياسيدي، وأعتقد أنها ساعة الحساب...»

- «فعلا..»

- «تعرف ما مررت به منذ آخر لقاء!»

- «بالتأكيد..»

قلت مستعظفا: - «هل تتكرم إذن بأن تكون رحيما متفهما!»

- «أنت تنسى أن هذه ليست وظيفتي.. عملي هو أن أقتل فقط.. وأن أستدعي الأرواح لتقف أمام الخالق..»

- «ولكن الكثير يتوقف على طريقة عرضك لحالتي..»

رد ساخرا: - «وهل تظنها محكمة بشرية يعتمد الحكم النهائي فيها على بلاغة الدفاع؟

إن كل روح تظهر أمامه عارية، مجردة من كل دفاعاتها، والمؤكد أنك تعرف أن الخالق عليم بكل شيء...»

- «وهو أرحم الراحمين!»

- «ماذا تريد بالضبط؟»

- «ألا أستطيع أن أطلب الصفح، ألم يوعد البشر بعفو من الله ومغفرة؟»

قال «ياما»: «مجرد كلمات.. إن رحمة الله تنزل على من يظهرون استعدادا للتعلم، وعلى

من يحاولون إصلاح طريقهم وليس على الضالين من أمثالك... الراسخين في الفساد والمعصية. ماذا كنت تفعل طوال الأيام الثلاث عشرة الماضية؟ أتمنى أن تكون قد بدأت تعرف معنى الحياة.. كأسك المقدسة..»

- «هذا رمز مسيحي وليس وثيق الصلة بحالتي..»

- «وهكذا تستمر في وقاحتك اللامحدودة مرة أخرى..»

ثم ومضَ الصوت مثل برق يمزق السماء...

- «متى يفهم البشر أننا لا يمكن أن نكون وسطاء في مثل هذه الأمور؟ إننا نمقت الحواجز التي رفعتوها بين الإنسان وأخيه الإنسان.. ولذلك لا تعرف إلا الرموز الهندوسية مع إنك متزوج من مسيحية... هل من أجل تنويرها؟ أليس كذلك؟ دعني أقول لك أن الأمر سواء بالنسبة للخالق، طريق «بوذا» الثماني نحو الخلاص، الوصايا العشر، الوحي الذي نزل على «محمد» أحاديث «كريشنا» في «البهاجا فادجيتا»... كلها أوجه مختلفة للحقيقة ذاتها..

وعلى أية حال أنا استخدمت الكأس المقدسة كرمز.. مجرد رمز.. ولكنني أعرف أنكم سوف تتقاتلون حتى على البقر والخنازير والخراف.. وكلها رموز.. ثم صمت «ألست أضيع وقتي في الكلام مع روح عادت من الأرض عارية وغير نادمة؟»

- «عفوا ياسيدي»

- «لا يجدي معي شيء من ذلك!»

- «كيف أعذر إذن؟ أثق أنك تدرك ندمي بالفعل..»

ثم ساد الصمت مرة أخرى. بعدها عاد الصوت لهدوئه كما لو كانت كلماتي قد لمست وترا رقيقا بداخله... فقال...:

- «ولكن قل لي، لماذا يحب البشر المعاناة والآلام بينما يمكنهم تحقيق السلام بلحظات من الصلاة كل يوم؟»

قلت: «وهذا مايقوله لنا الكهنة أيضا..»

- «هل يمكن أن تدعنا من أولئك المحترفين وتتركهم لشأنهم؟»

وبدا «ياما» غاضبا... «نحن نتعامل معهم بما يناسبهم، ومعظمهم يولد مرة أخرى في هيئة ثعلب أو بيبغاء أو حرياء...»

- «أنا سعيد أن أسمع ذلك..»

- «ولكن ألم يكن لديك بعض الوقت للصلاة؟»

قلت: «أعتقد أن السبب ضرب من التمرد على أرثوذكسية أبي. تعرف أنه حاول أن يفرس في تعاليم من «الجيتا» و«الأوينيشاد» وكل الكتب المقدسة...

لم يتركني أصل إلى الله بطريقتي.. كنت دائما مدفوعا..!»

- «وهكذا تحولت إلى التطرف الآخر.. رسم الصور العارية..»

شعرت بأنني محاصر.. ولكن سرعان ما هب ذكائي لينقذني...

- «ولكنها بالنسبة لي كانت مجرد موضوعات للتفكير.. ألا يعتبر ذلك ضربا آخر من التأمل؟»

ضحك «ياما». وشعرت بالسعادة لنجاحي في تهدئته. أعرف أن حضور البديهة والإجابة السريعة تحققان أكثر مما يحقق الإسهاب في الكلام.. ولكنني أدركت أيضا أنني أخطأت...

قال إله الموت مقاطعا: «هذا خداع للنفس.. إن تصوير امرأة عارية ماهو إلا مقدمة لمسرحية تنتهي دائما في الفراش...»

- «ليس دائما.. لقد ذهبت مع «ريزيا» إلى الفراش دون....»

قال: «ذكرت ذلك من قبل.. وتلك حيلة أخرى. لعب بالنار. مجرد تفكير المرء بشيء شهواني نعتبره خطيئة.. هل تذكر كيف تلخص «الجيتا» ذلك؟:

«عندما يفكر المرء في أشياء تتعلق بالحواس

تولد الجاذبية

ومن الجاذبية تنمو الرغبة

الرغبة تشتعل وتصبح عاطفة جامحة

والعاطفة تولد الطيش

حينذاك تضل الذاكرة..

فتقوض العقل...»

قلت وقد سحرتني تلاوته المؤثرة «هذا تفصيل منطقي، ولكن لماذا خلقت المرأة إذن؟»
 - «للإنجاب... فقط.. وليس للاتصال الجنسي غير الشرعي ... أليس كتابكم المقدس اليوم هو الكاماسوترا* وليس «الجيتا»؟»
 - «كتابي أنا ياسيدي؟»

- «وكتاب كل أمثالك من الصفوة...»

- «لا أعرف، ولكن أليست الكاماسوترا عملاً فنيا.. من ناحية الأسلوب على الأقل؟
 المؤكد أنه ليس كتاباً عادياً عن الجنس.. أعتقد أنه رؤية فنان للعري.»

قال مزمجرا: «العري والفن! إذا كان ذلك هو هاجسك فقد كان بإمكانك أن ترى المقدس في الطفل العاري.. إنه تجسيد حقيقي للبراءة والطهارة.. ما رأيك في تصوير «كأنجارا» لكريشنا طفلاً عارياً؟ ما رأيك في تصوير «مايكل أنجلو» للمسيح طفلاً؟ ولكني أعرف أنك كنت مهتماً بجسد المرأة فقط.. ولذلك دعنا نطلق عليه اسم الفسق والفن وليس العري والفن!»

لمس وجداني شيء مما قال فهتفت: «اقترح رائع! اعطني إذن فرصة أخرى... أرجوك.. سوف أصور الطفل هذه المرة... إن هذه الرؤية وهذا الإلهام كان لابد أن يوحى إليّ بهما فنان زميل...»

قال الصوت: «تملق ومداهنة... هل تحاول أن تخلق سبباً لكي تولد مرة أخرى على هيئة بشر؟ فنان؟ ألم أخبرك بأن ذلك ليس من شأني؟»

قلت: «لم أقصد ذلك. إنها مجرد فكرة طرأت لي.. وعي مفاجئ بأن حياة ثمينة قد تم تبديدها.. هباء...»

- «كلمات... مجرد كلمات...»

- «لا... أليست تعرف كل شيء...؟»

صمت. هل اختفي؟ ولكن الصوت عاد مرة أخرى:

- «حسن! لابد أن أنصرف. شيء غريب!. هذه هي المرة الثانية التي تؤخرني فيها... رغم أن عليّ أن أستاذ لاستقبال ثلاثة آلاف روح قادمة من مكان واحد فقط...»

* كلمة سنسكريتية من مقطعين: «كاما» تعني اللذة أو المتعة و«سوترا» تعني تفصيل القول أو الشرح في شيء معين، والمقصود كتاب «الكاما سوترا» الذي يترجم أحياناً «كاما شاسترا» وهو منسوب إلى «فاتسيايانا» ويتناول تحقيق اللذة أو المتعة (المترجم).

سألته: «أعمال شغب وعنف طائفي في الهند؟»

- «أنت تنسي أن الهند ليست ميدان عملياتي الوحيد.. بالإضافة إلى أنه ليس شغباً هذه المرة... لقد سمحت بحدوث تسرب في أحد المصانع النووية.. ولذا فإن قرية قريبة من هنا سوف تختفي بكاملها من الوجود بحلول المساء...»

- «في الولايات المتحدة؟»

- «لا... في روسيا، ولكن الولايات المتحدة يمكن أن تستفزني أيضاً. أنا مصمم على عمل شيء على نطاق واسع إذا لم تكف القوى الكبرى عن اللعب بالذرة على هذا النحو الشيطاني...»

شعرت بالسعادة لأنه أشركني في هذه المعلومات السرية. هل كان ذلك تعاطفاً منه معي فعلاً؟ ظل هذا الإحساس ملازماً لي منذ أول لقاء معه.

- «الآن وقد انتهيت دوري أتركك أمام الله..»

- «أين سأقابل خالقي...؟ أرجوك...» وكنت أشعر بخوف يتملكني...

- «هنا بالضبط... وفي أي وقت...»

دمدمة في السماء يتردد صداها في طبقات الجو، افترقت السحب كأنها تفسح طريقاً للمرور... ثم هدر صوت عميق رنان من سحابة كبيرة بيضاء.

«لقد سمعت ورأيت كل شيء، سوف أتركك تعود إلى الأرض لتكمل عملك، سوف تشهد عظمتي في الطفل العاري، لا تجعل الغضب رفيقك، مبارك من يعفو وينسى... وليصحبك السلام..»

آه لو كانت الروح تستطيع أن ترقص فرحاً! كل هذه البركة لي! ولكن كيف كنت أستحق عطفه ورضاه؟

سمعت جلجلة أجراس المعابد وتراويل تتردد بنفس لغتي.. وكانت الأصوات تندفق عليّ مسمعي وهي تعلو.. وتعلو...

كان راديو جارنا الذي ينقل تراتيل صباح الأحد من معبد «فينكاتيسوارا» في «تيروپاتي» هو الذي أخرجني من حلمي الطويل. عندما طردت النوم من عيني وأنا مازلت ممددا على الأريكة لاحظت أن يدي اليمنى كانت فوق صدرى، وأن قلبي كان يقفز مثل حصان يعدو فوق طريق ممهدة. هل كنت بالفعل على قيد الحياة؟

وعندما جلست على الأريكة تحت عيناى على الطاولة الصغيرة المجاورة عنوان كتاب «الحياة بعد الموت»، فتركت أصابعي تجري على زجاج الطاولة وتتحسس الزوايا النحاسية التي تمنعه من الإنزلاق.. فوق رأسي معلقة ثريا تشبه الآن إلها متعدد الأذرع... أشعة الشمس تخترق الغرفة من بين ثغرات في الستائر فتضيء السجادة وتزهو ألوانها المتعددة.

امتد بصرى نحو البقعة الطرية في سقف الغرفة وكانت قد جفت إلا قليلا، وبدل أن تشبه الحيوان الزاحف واسع الشدقين كانت قد أخذت الآن شكل البجعة الضخمة المرفرفة بجناحين من البياض في الهواء!

بعد ذلك جاء «بيتر» يتدحرج مثل كرة بيضاء من القطيفة وهو يهز ذيله، لف وسطه وقفز على حجري، وبينما أنا أمسد رقبتة وأداعب خطمه مد لسانه وبدأ يلحق وجهي..

- «هل أنت سعيد؟ كنت أحسب أنني فقدتك..»

تركته كامنا على حجري يلتمس الدفء، ولكن أين «مارى»؟ هل مازالت في السرير؟ تذكرت دون وضوح تام كيف عدت إلى المنزل في الليلة الماضية في ثياب «بابار».

تتابع مضطرب لصور حزينة تتزاحم في رأسي: الاغتصاب، صراع الديكة، جريمة القتل، «مارى» و«جورج» في الحمام.. مر وقت طويل قبل أن أتمكن من فصل الخيال عن الواقع. كان عقلي مايزال غارقا في الحلم المزعج عندما فتحت «مارى» الباب برفق ودخلت.

قالت وهي تربت على رقبة «بيتر»: «صباح الخير يا «رامى»، لقد نمت طويلا يا حبيبي..»

كان صوتها رقيقا ومحببا.. تركت «بيتر» يقفز من حجري وحدقت فيها مدهوشا.. هل ما أراه أمامي رؤية مزدوجة؟ عندما قمت من على الأريكة تذكرت أن تلك المكالمات التليفونية الغامضة

من « كينيث جورج » هي التي كانت قد ألهمت شكوكي....

- «أما تزال غاضبا مني؟»

قلت بصوت خفيض وعياني على وجهها: «لا أعرف..» ثم بدأت مع ارتفاع غضبي:
«من كان ذلك الرجل؟»

قالت وهي تبسم ابتسامة لعب: «تقصد « كينيث جورج »؟»

قلت: «لماذا لا تقولين صراحة؟»

- «حسن! إنه شخص لا تعرفه..»

- «ولكن لا بد أن أعرفه»

- «حقيقة؟»

رأيت نظرة خبت في عينيها. وبينما كنا نتحدث ظهر «رامو» عند الباب ممسكا في يده
بجريدة الصباح....

- «الجريدة ياسيدي... هل أحضر لك القهوة أيضا؟»، قالها «رامو» وهو ينظر لكليتنا نظرة
فاحصة..

قلت وأنا أتناول الجريدة منه وأضعها على الطاولة:

«فيما بعد...»، ثم استدرت إلى «ماري»:

- «نعم لا بد أن أعرف...»

- «هو صديق دراسة قديم»

- «ولماذا اتصل بك؟»

أحسست كأن أشعة ليزر تنطلق من نظراتي لكي تخترق عقلها...

«كان يطلب سلفة، اتصل أكثر من مرة»، ثم أضافت بصوت محايد: «ولكنني أعرف أنه
لا يعيد روبية واحدة يقترضها. إنه فعلا عالة على الآخرين..»

شعرت كأنني تحت قصف رعدي أو ما شابه، فهممت: «ظننته...» ابتسمت «ماري»
وهي تكمل عبارتي «عشيقتي! هل جنتت؟ إن خيال الفنان يمكن أن يكون لعنته وسبب شقائه
أيضا».

- «نعم!»

- «لا أتصور أن خيالك يمكن أن يشطح بعيدا هكذا.. تصورتها حالة من حالاتك ولذا تركتك تنام بمفردك ليلة أمس، رغم شعوري بأنني كنت أريد.....»

- «يا إلهي!»

- «أتمني أن تكون قد رأيت أحلاما سعيدة..»

- «كان كابوسا!»

ردت بشيطانية: «تستاهل!»

قلت لنفسي، «فعلا أنا أستحق ذلك، كم تمنيت أن أخرج من نفسي وأراقب تحركاتي كأن جسدي قد انفصل عني تماما..» وبعين الخيال رأيت إصبعي يشير نحوي بالاتهام..

ألست نفس الشخص الذي خان زوجته مع «ريزيا»؟ وهل عرفت «ماري» المسكينة من كانت تلك المرأة الأخرى؟

سألتني: «هل تريد بعض القهوة الآن؟»

- «وماذا عنك؟»

- «سأتناول قهوتي بعد الحمام..»

اقتنصت نظرة إليها، تبدو نفس الفتاة الشابة التي كنت أغازلها منذ سنوات مضت.. نفس طالبة الفنون التي تحدثت والديها لتتزوجني أنا الهندوسي..

وفجأة شعرت بالدم الحار يتدفق في شراييني فقلت:

- «إذن سأنتظر أنا أيضا... ولأأخذ حمامنا معا..»

- «ماذا؟»

- «نعم.. هكذا..!»

- «لا أعرف ماذا يدور بعقلك.. أنا أمام «رامي» مختلف تماما..»

قلت: «ربما، ولكن ماهو المبلغ الذي طلبه جورج؟»

- «ألف روبية»

- « ولم لانعطيه إياها ؟ المبلغ ليس كبيرا... »
- قالت: « أنا شاكرة لذلك ، ولكنك لاتريد أن تضيع هذه النقود علينا! »
- « لا يهم »
- « إذن هيا ، اطلبه أنت .. سأعطيك رقم تليفونه .. هذه جنازتك... »
- « لقد مررت بها بالفعل .. »
- « ماذا ؟ »
- « لاشيء .. »
- « تقول ألغازا يا حبيبي ؟ »
- « أليست هي الطريقة الوحيدة ؟ »
- « هكذا تعود مرة أخرى إلى الموضوع... »
- عرفت أنني أضايقتها . قلت: « ثم هناك شيء آخر... أرغب الآن في تجربة شيء جديد في الرسم... »
- « عارية تحت الدش ؟ »
- « لا .. بل أطفال عرايا... أليس الطفل العاري هو أنقي مافي الوجود ؟ أليس هو الصورة الحقيقية للإله ؟ »
- « برفاؤ! وهل تنوى يا حبيبي أن تترك عراياك الأخريات ؟ »
- وتجههم وجهها كما لو كانت فكرة مقبضة قد عنت لها.. ثم تنهدت وقالت: « أعتقد أنني أعرف لماذا تريد أن تغير توجهاتك... »
- « صحيح ؟ »
- « ذلك لأن خيالك يود أن يردم هوة بيننا... فأنا لا أستطيع أن أهبك طفلا... »
- « لا يا حبيبتي... »
- وتحركت لأحيط بخصرها بذراعي لكنها حررت نفسها مني بلطف وانصرفت.. قررت أن أتبعها إلى الحمام متمنيا أن يخرجها ذلك من موجة الاكتئاب... ولكن وأنا أهم بالخروج من

غرفة المعيشة وقعت عيني على خبر منشور في مربع على الصفحة الأولى من جريدة الصباح...

«وفاة نواب سليمان على». أذهلتني المفاجأة فالتقطت الجريدة لأقرأ التفاصيل:

توفي ليلة أمس «نواب سليمان على» سليل الأسرة

المغولية العريقة على أثر أزمة قلبية مفاجئة، مخلفا اثنين

من الأبناء هما ابنته «ريزيا» وابنه «بابار». برحيل نواب

سليمان على فقدت ولاية «أندرا برادش» ومدينة «حيدر أباد»

على نحو خاص راعيا عظيما للفنون والموسيقى والغناء

والرقص. تبدأ الجنازة من «قصر جولشان» مساء، وسوف

يواري جثمانه الثري في مدافن العائلة في خيرت أباد..»

وأنا ممسك بالجريدة، خيم على إحساس غير عادي. كيف استطاع حلمي أن يتنبأ بموته؟ ثم أدركت كيف أحبط هذا الخبر الحمام الذي كنت أتطلع إليه.

لم أكن قد هاتفت «ريزيا» من منزلي أبدا، لكن حيث أن «ماري» في الحمام الآن، قررت أن أتصل بها.. آه.. لو أن بإمكانني أن أقول لها شيئا عن حلمي!..

عندما ردت علىّ قلت: «أنا في غاية الأسف... لقد قرأت الخبر في الصحيفة لتوي..»

- «وأنا أيضا حزينة رغم....» ثم توقفت.... «أنت تعرف كيف كنت أشعر نحوه... وبالمصادفة فإن مانشر بالجريدة لم يكن واضحا... إن «سمرخان» هو الذي كتبه.»

- «ماذا؟»

- «لم تكن الوفاة بسبب أزمة قلبية، لقد خنقه عامل الحديقة في سريره.»

- «والد «محبوبة»؟»

- «نعم....»

مر صمت قصير، زحف على عمودي الفقري شعور جمدني في مكاني، كنت على الحد الفاصل بين الهذيان والحقيقة...

قلت: «سوف أحضر من أجل الجنازة يا «ريزيا» رغم أنك لم تحضري جنازتي....»

— «ماذا؟»

— «لا أعرف ما الذي جعلني أقول ذلك..»

— «ماذا حدث لك؟»

— «لا شيء...»

— «أتمنى ألا يصيبك مكروه..»

— «ريزيا»

— «نعم...»

— «هل تؤمنين بالوحي... بالأحلام؟»

— «لم أفكر بتلك الأشياء من قبل، لماذا تبدو هكذا وكأنك في عالم آخر...»

— «أنا بخير.. قصدت فقط أن أسأل هل تؤمنين بأن هناك شيئاً يمكن أن يغير مدركات الإنسان الحسية، مثل الجنين الذي يغير جنسه بشكل خارق في رحم الأم.. مثل البقرة التي تنبت لها أجنحة وتذب فيها الحياة الجديدة؟»

— «هل هذه نظرية جديدة من نظرياتك الغريبة؟»

قلت وأنا جاد: «لا.. بل كنت أحاول أن....»

— «حسن! دعنا نناقش ذلك بعد الجنازة...»

هل تنتظر لحظة، سوف أعطيك مجموعة أخرى من ملابس «بابار».
وفترة صمت أخرى.

لا أعرف ماذا أقول. أشعر بأنني في فخ.. قلت متعشراً: «ريزيا»، كنت أود أن أخرج مع «ماري» هذا المساء إلى بحيرة «جنديت» و«جولكوندا»..

انفجرت في: «هكذا، وفي مثل هذه الظروف؟ لاداعي لأن تحضر من أجل الجنازة أيضاً.. تمنيت لو أنني أصبح روحاً بين لحظة وأخرى لكي أستمع إلى أفكارها. ذهب قلبي إليها.. ولكن بلا حول ولا قوة. كيف يمكن مقاومة قوة تجذبني الآن في اتجاه آخر؟

همست: «ريزيا...»

لم أسمع ردا.. بل صوت تنفس مخنوق..!

- «أرجوك، دعيني أشرح لك...» قالت بصوت مبحوح: «وهل حدث أن كانت الشروح قادرة على أن تشرح شيئا...؟»

- «لحظة واحدة... ر... ج... و.... ك...»

ولكنها وضعت سماعة الهاتف.

أما أنا فقد بقيت ممسكا بالسماعة في يدي كأنها طائر ميت أصبته للتو... بطنه الدافئ ينبض في تجويف راحة كفي..

«مارى» في الحمام. وفي صمت المنزل العميق كان يأتي صوت مذياع جارنا الذي ينقل الترانيم والابتهالات من معبد الإله «فينكاتسوارا..» والآن انتبه جيدا إلى ترتيلة ظلت تتردد مثل لازمة متكررة في أغنية:

«يأتي الميلاد دون أن يفهمه أحد

ويأتي الموت دون أن يفهمه أحد

وبينهما

تدرك الكائنات كل شيء...»

شيف ك. كومار

كاتب هندي ولد لأسرة هندوسية في «لاهور» حيث تلقى تعليمه حتى درجة الماجستير، ثم نزع في ١٩٤٧ إلى «دلهي» بعد التقسيم حيث عمل بالتدريس ثم في إذاعة الهند. كما، رأس تحرير مجلة أدبية قبل ذهابه إلى «كمبردج» للحصول على الدكتوراه.

شاعر وروائي وكاتب مسرحي ومترجم، وانتخب أثناء إقامته في إنجلترا زميلاً في الجمعية الملكية للآداب.

يعيش الآن في حيدر أباد مع أسرته ويقسم وقته بين القراءة والكتابة والعمل في الحديقة والاستماع إلى الموسيقى ومراقبة الطيور..



دار شرقيات للنشر والتوزيع